الطبعة الأولى
١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

مركز الصف الألكتروني
للطباعة والنشر والتوزيع والإعلام
الروشة ــ بناية الشمس ــ الطابق الأول
هاتف : ٨٠٠٦٦٢ ــ ٨٠٤٦٠٧
فاكس : ٨٠٦١٦٠
ص. ب. ٤١٥٤ ــ ١١ ٥٣٦٩ ــ ١١٣
بيروت ــ لبنان

وقفات مع كتاب الطبقات

"طبقات ود ضيف الله"

إعداد

الشيخ الأمين الحاج محمد أحمد

مدرس المواد الشرعية بمعهد اللغة العربية

بجامعة أم القرى بمكة المكرمة

مركز الصف الألكتروني

للطباعة و النشر و التوزيع و الإعلان

بيروت - لبنان


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتدي ومن يضلل فلا هادي له وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله بين يدي الساعة بشيراً ونذيراً، ونبياً ورسولاً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد. . .

فإن خيرَ الحديث، كتابُ الله وخَيْرَ الهدى هدى محمد بن عبد الله، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة.

السودان بلد عربي إسلامي دماً، وثقافة، وديناً، وعادات لا ينكر ذلك إلاَّ مكابر، ولا يغالط فيه إلاَّ جاهل، ولا ينفيه إلاَّ معاند حاقد، وقد بدأت هجرة العرب إلى السودان منذ أمد بعيد، وعهد سحيق قبل الإسلام، حيث هاجرت مجموعات من القبائل العربية عبر البحر الأحمر من الحجاز وغيره في شكل تجار ورعاة.

أما بعد الإسلام فقد تدفقت جموع من المسلمين العرب منذ أواسط القرن السابع الميلادي في شكل فاتحين وتجار داعين إلى الإسلام من طرق ثلاثة رئيسة هي:

١ ـ من مصر عن طريق وادي النيل والصحراء الشرقية.

٢ ـ من الحجاز عن طريق البحر الأحمر.

٣ ـ من المغرب إلى وسط السودان وغربه.

وكان لهذه الهجرات آثار محدودة على الصعيد الاجتماعي.

كانت تحكم السودان في ذلك الوقت دولتان مسيحيتان هما مملكة المقرة في الشمال ومملكة علوة في الوسط.

أما الهجرات العربية الفاعلة فقد بدأت مع بداية القرن التاسع الميلادي حيث هاجرت العديد من القبائل العربية خاصة عن طريق مصر بحثاً عن المرعى، وهرباً من السلطات الحاكمة هناك، واشتراكاً في الحملات المملوكية ضد بلاد النوبة[١].

لم تبرح مملكتا علوة والمقرة طويلاً حتى سقطتا وعمَّ البلاد شيء من الفوضى مما مهد لقيام دولة الفونج الإسلامية في الفترة ما بين ٩١٠هـ ـ ١٢٤٥هـ الموافق ١٥٠٤م ـ ١٨٣٠م.

قامت دولة الفونج الإسلامية نتيجة تعاون بين القبائل العربية المهاجرة بزعامة العبدلاب والقواسمة وغيرهم من جهة والفونج، وهم عبارة عن بدو سود وفدوا من أَعالي النيل الأَزرق من جهة أخرى.

اختط الفونج مدينة سنار على النيل الأزرق عاصمة لجنوب المملكة بينما ارتكز العبدلاب في قَرِّي عند الشلال السادس يشرفون ويتولون حكم الجزء الشمالي من المملكة إِلى أَربجي وبعد حين اتخذوا الحلفاية مركزاً بدلاً من قَرِّي.

شملت دولة الفونج جل شمال ووسط وشرق وغرب السودان الحالي، حيث امتدت حدودها من الشلال الثالث شمالاً إلى حوالي خط عرض ١٣ شمال خط الاستواء وأجزاء كبيرة من ديار البجا وكردفان.

(١) انظر مقدمة الطبعة الأولى لطبقات ود ضيف الله للبروفسور يوسف فضل ص ٢.

وقد أدى قيام دولة الفونج بالاتحاد مع العبدلاب والقبائل العربية الأخرى إلى شيء من الاستقرار السياسي مما هيأ الجو للدعوة الإسلامية أَنْ تنتشرَ، وللأَمن أَنْ يستتبَ، وللجهالة أَنْ تنقشع نوعاً ما، وللعرب أن تتمكن.

يقول ابن ضيف الله في مقدمة كتابه مبيناً حال الجهل الذي كان عليه الناس في أول قيام دولة الفونج: (اعلم أن الفونج ملكت أرض النوبة[١] وتغلبت عليها في أول القرن العاشر[٢] سنة عشرة بعد التسعمائة وخُطَّت مدينة سنار خطاها الملك عمارة دنقس[٣] وخُطَّت مدينة أربجي قبلها بثلاثين[٤] خطها حجازي بن معين. ولم يشتهر في تلك البلاد مدرسة علم ولا قرآن، ويقال إنَّ الرجل يطلق المرأة ويتزوجها غيرُه في نهارها من غير عدة، حتى قدم الشيخ محمود العركي من مصر وعلَّم الناس العدة)[٥].

هذه المقدمة الموجزة كان لا بد منها وموضوع بحثنا خاص بطبقات «ود» ضيف الله وهو عبارة عن سجل صادق للحالة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية والسياسية للمجتمع السوداني في ثلاثمائة عام ونيف هي مدة حكم دولة الفونج الإسلامية، بل يعتبر كتاب الطبقات المصدر التاريخي الرئيسي لهذه الفترة.

مهما يكن رأينا في كثير مما ورد في كتاب الطبقات مما سنبينه ونشير إليه في أثناء البحث إلاَّ أَنَّ الكتاب يعد (مرآة صادقة لحياة

---

(١) مملكتي علوة والمقرة.
(٢) الهجري.
(٣) أول من اشتهر من سلاطين الفونج.
(٤) سَنَة.
(٥) كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان تأليف محمد النور بن ضيف تحقيق وتعليق وتقديم بروفسور يوسف فضل ـ الطبعة الرابعة ١٩٩٢م دار التأليف والنشر ـ جامعة الخرطوم ـ السودان ص ٣٩ ـ ٤٠.

السودانيين الدينية والروحية والثقافية وسجل صادق لمعتقداتهم الدينية في ذلك العصر أياً كان رأينا فيها) كما يقول محقق كتاب الطبقات في مقدمة الطبعة الثانية[١] (حيث ترك لنا معلومات ثرة عن معتقدات السودانيين والتي تمثل الجذور التاريخية لكثير مما هو سائد في سودان اليوم)[٢].

(١) صفحة خ.

(٢) المصدر السابق.

مؤلف كتاب الطبقات
ومنهجه في تأليفه[1]

هو الشيخ محمد نور بن ضيف الله بن محمد بن ضيف الله بن علي بن عبد الغني بن ضيف الله، وإلى ضيف الله هذا ينتسب «الضِّيفَلاَب» وهم فرع من الجعليين الذين يسكنون حلفاية الملوك وأمه ابنة موسى بن رية وهي كاهلية هذلية.

ولد محمد نور رحمه الله عام ١١٣٩هـ الموافق ١٧٢٧م وتوفي عام ١٢٢٤هـ الموافق ١٨٠٩م وعمره خمس وثمانون عاماً.

كان رحمه الله على درجة من الفقه ولهذا كان الفونج والعبدلاب عهدوا إليه بالإفتاء في بعض قضايا التمليك.

وكتاب الطبقات عبارة عن تراجم لرجال الطرق الصوفية في ذلك العهد، وبعض الملوك، والمشايخ، والقضاة، والشعراء، وقد بلغ عدد من ترجم لهم ٢٧٠ شخصية تتفاوت تراجمهم تفاوتاً مخلاً بين الطول والقصر وقد تأثر في تأليفه لهذا الكتاب بالشعراني في الطبقات الكبرى، وبالسبكي في طبقات الشافعية، وبالسيوطي ونقل عنهم وسار على مناهجهم خاصة الشعراني.

---

(١) انظر مقدمة الطبعة الأولى ص ١٥.

وقد بيَّن أن سبب تأليفه لذلك دعوة من بعض زملائه الذين طلبوا منه أن يؤرخ لهم «ملك السودان» وأن يذكر مناقب أوليائها الأعيان[(١)].

اعتمد «ود» ضيف الله في تراجمه هذه على مصدرين أساسيين هما كما يقول محقق الكتاب[(٢)] الروايات الشفوية، والمصادر الخطية.

يقول محمد نور بن ضيف الله: (إن أخبار هؤلاء الأعلام متلوة عند الخاص والعام ولهذا اختار منها ما اشتهر وتواتر، وذلك لأن الخبر المتواتر عند الأُصوليين من الأَقسام اليقينية التي تفيد العلم بالشيء وتنفي عنه الشك والظن)[(٣)]. فقد اعتمد على الشهرة وليت ابن ضيف الله في طبقاته هذه أسند وعلق، فمن أَسند فقد أحال وجعل العهدة على الراوي وأعطى فرصة لمن يريد أن يحقق، وإن ما سلكه في تدوين طبقاته هذا لا يفيد التواتر ولا اليقين، لأن الخبر المتواتر الذي يفيد اليقين وينفي الشك والظن هو الذي يرويه الثقة العدل الضابط عن مثله، أما ما يسمعه المرء عن أمه أو جده أو خاله بدون معرفة لحال هؤلاء، ومما لا شك فيه أَنهم غالباً لا تتوفر فيهم الشروط التي وضعها علماء الجرح والتعديل، فكون «ود» ضيف (يسند إلى والده أو خاله موسى ود رية أو دفع الله ابن الشيخ زين العابدين وغيرهم) لا يفيد التواتر الاصطلاحي عند المحدثين ولا يثبت يقيناً ولا ينفي شك الشاكين، إذ لا يعدو ما يحكيه أن يكون سماعاً يحتمل الصدق كما يحتمل الكذب.

قال محقق كتاب الطبقات: (ولا شك أَنّ المؤلف في أخباره عن الشعوذة والخرافة التي كانت رائجة في زمانه، وفي حديثه عن الكرامات وخوارق العادات التي أسبغها الأتباع على مشايخهم حتى ظنوهم قادرين

---

(١) انظر مقدمة الطبعة الأولى ص ١٨.

(٢) المقدمة ص ٢١.

(٣) المصدر السابق.

على إبراء المرضى، وإحياء الموتى، والإخبار عن الغيب قد أرخ لكثير مما لا يرضاه العقل ولا يقبله)[١].

وليت الشيخ محمد نور بن ضيف رحمه الله اكتفى بعدم التعليق والنقد لما يخالف الشرع فحسب بل تعداه إلى تبرير بعض المخالفات الشرعية البينة الواضحة، مثال ذلك تبريره لما فعله محمد الهميم «ود» عبد الصادق عندما جمع بين الأختين بعد أن جمع تحته أكثر من تسعين من النساء ولهذا اعترض عليه القاضي دُشين رحمه الله المشهور بقاضي العدالة وفسخ كل أنكحته الباطلة هذه (أنه كان في حالة الجذب الإلهي)[٢]؟!! وبأن الشيخ محمد من الملامتية[٣]!!!

ومما يحمد للشيخ محمد نور بن ضيف الله تعليقه على ما جاء في ترجمة الشيخ إدريس بن محمد الأرباب[٤] في حكم «التمباك»[٥]: (..فقال الشريف رضيت بالقاضي دُشين فأرسل الشيخ دفع الله وسأله وهو في القبر فقال: «التنباك» حرام كَلِّم الشيخ يسأل لِيَ المغفرة بسبب شربي له. والحكاية مشهورة والله أعلم بالحال فقلت[٦]: سؤال الميت لا يترتب عليه حكم شرعي وإنما هو من باب كرامات الأولياء).

ولو ختم الشيخ محمد نور دائماً ما يحكيه بما ختم به هنا وهو قوله «والله أعلم بالحال» لكان خيراً له.

---

(١) مقدمة الطبعة الثانية صفحة خ.

(٢) انظر الترجمة ص ٢٠٥.

(٣) هم الذين يجاهرون بفعل الذنوب لكي يسقطوا في أعين الناس فتزول هيبتهم والرسول ﷺ يقول: «كل أمتي معافى إلا المجاهرون».

(٤) ترجمة رقم (٦١).

(٥) مادة خسيسة قذرة مخدرة ومفترة تصنع من التبغ والعطرون توضع في الفم بين الشفة والأسنان السفلى يستعمله بعض السودانيين والأحباش واليمن، من أهل العلم من حرمه ومنهم من كرهه. ويطلق هذا اللفظ كذلك على ما يشرب من التبغ عن طريق «الشيشة» وغيرها.

(٦) القائل الشيخ محمد نور بن ضيف الله.

أما محقق الكتاب أستاذنا بروفسور يوسف فضل حسن فقد بذل جهداً مشكوراً في الحصول على عدة نسخ ومراجع ومصادر للمقارنة كما بين ذلك في مقدمته، وأخرج النص إخراجاً جميلاً، وشرح الغريب وحدد المواقع وقدم للكتاب بمقدمة نفيسة تعطي القارىء صورة واضحة عن حال المجتمع السوداني في الفترة التي ترجم لها كتاب الطبقات وعلَّق، ووجه، ورجَّح كثيراً وكنا نود من أستاذنا[1] لو طال تعليقه بعض الخوارق التي فيها مخالفة واضحة بينة، ولكن لا تثريب عليه إن شاء الله وقد أشار إلى الرد على ذلك في مقدمة الطبعة الثانية قائلاً: (ولما كان ظهور هذه الطبعة من الطبقات وتداولها عدد كبير من القراء سبباً في إثارة بعض التساؤلات بين أتباع بعض الفرق الدينية عن بعض أخبار الشعوذة والخرافة التي تطفح بها طبقات «ود» ضيف، وعن دور المحقق في الترويج لها، ليس غريباً أن تنكر فرقة إسلامية مثل هذه المعتقدات فهو موضوع كثر الحديث عنه عند مختلف الفرق منذ أمد بعيد)[2].

بعد كل هذا أود أَنْ أَذكر أَن لي بعض الوقفات مع كتاب الطبقات، بعضها وقفات عامة تتعلق بمعتقد وتصور من ترجم لهم الكتاب نحو حكم الشرع في البناء على القبور، وتقسيم العلم إلى علم شريعة وحقيقة، وعن تعريف الكرامة والولاية، وعن حكم التوسل بالصالحين أحياء وأمواتاً، ونحو ذلك مما له صلة بما ورد في كتاب الطبقات.

والبعض الآخر وقفات خاصة مع بعض المواقف المشرفة المضيئة، وجلها مع القاتمة المخالفة للشرع.

والبحث يتكون من فصلين: الفصل الأول عن الوقفات العامة والثاني عن الوقفات الخاصة.

---

(١) درست في كلية الآداب جامعة الخرطوم من ١٩٦٥م إلى ١٩٦٩م وقد قام البروفسور يوسف فضل بتدريسنا مادة التاريخ في الصف الثاني.

(٢) مقدمة الطبعة الثانية صفحة (خ).

وقبل أن أختم حديثي في هذا التمهيد أود أَنْ أُسجل شكريَ الجزيل للبروفسور يوسف فضل حسن لتكرمه بإمدادي بنسخة من كتاب الطبقات هدية ولواسطة الخير بيني وبينه الأخ الدكتور حسن مكي محمد أحمد.

وأخيراً أسأل الله أَنْ يوفقني لما عزمتُ عليه، وأن يجعل عملي هذا وغيره خالصاً مشكوراً متقبلاً وأن يجعلنا طلاباً للحق.

كما أَرجو من أخي القارىء الكريم أَنْ يكون ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه وأَنْ يطالعَ ما جاء في هذا البحث بتجرد كامل فما وجده موافقاً للكتاب والسُّنة وما أَجمعت عليه الأُمة قبله وإن كان مخالفاً لما تهواه نفسه، وما كان مخالفاً للكتاب والسُّنة والإجماع رده ولا كرامة، فكل يؤخذ من قوله ويترك إلا الرسول ﷺ، واحذر أخي الحبيب أَنْ تكونَ إِمّعة تقول: إنْ أحسن الناس أحسنتُ وإنْ أساءوا أسأتُ. ولكن وطن نفسك على الحق إنْ أَحسنَ الناس أن تُحسن وإن أساءوا أن تجتنب إساءتهم فإنه لا أسوة في الشر، واحذر أن تقلد دينك الرجال فالحق أحق أن يتبع، وتذكر أَنّ الذي صد المشركين الأوائل عن الحق الذي جاء به الهادي البشير تقليد الآباء والأَجداد ولهذا عاب الله عليهم قولهم ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[1].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، سيدنا وسيد ولد آدم أجمعين، وعلى آله وصحبه الطاهرين الطيبين وعنا معهم بعفوك وكرمك يا أكرم الأكرمين.

---

(١) الزخرف: ٢٣.

الفصل الأول

وقفات عامة

الوقفات العامة والخاصة مع كتاب الطبقات لا تحصى كثرة، ومردها كلها إلى العقيدة الصوفية والفكر الصوفي الذي يسيطر على أهل السودان سيطرة تامة، وذلك لأن الإسلام دخل إلى السودان عن طريق التجار ورجال الطرق الصوفية، وإلى ندرة العلم السني في الماضي والحاضر. وإحجام القليلين الذين يحملونه عن القيام بالواجب إما خوفاً أو طمعاً من الهيمنة الصوفية.

يقول محقق الطبقات في مقدمته: (ولم يكن الاعتقاد في الأولياء وقفاً على عامة الناس بل اعتقد الملوك والسلاطين فيهم، وكانوا لا يشرعون في عمل هام إلاَّ بعد مشورتهم كما فعل الشيخ عجيب عندما عزم على حرب الفونج فنهاه الشيخ إدريس «ود» الأرباب متنبئاً بأنهم سينتصرون عليه وسيسودون ذريته إلى يوم القيامة[١].

وحين طلب الملك بادي مشورته على حرب العبدلاب[٢] وافقه وتنبأ له بالنصر. ولما استجارت الأميرة كميرة بالشيخ خليل الرومي ليساعد أخاها الملك بادي ود أُونسة على استرداد عرشه اشترط أنْ يعلنَ الملك توبته أولاً ففعل قائلاً: أنا تبت عن جميع ما نهاني عنه. فقال له

---

(١) انظر إلى قوله إلى يوم القيامة!.

(٢) العبدلاب فرع من الجعليين نسبة إلى عبد الله جَمَّاع يسكنون الحَلْفَاية، والجزيرة في الهلالية و«الكاملين العبدلاب» وغيرهما.

الشيخ خليل: الفونج أخذوا عمامة المُلْكِ منك فخذ عمامتي هذه وضمنت لك مُلْكَ أبيك إلى أنْ تموت[١]. ولما تعرض مُلَك الملك عبد السلام للضياع استغاثوا بالشيخ بدوي ود أَبي دليق فنجدهم[٢]، وكان حمل طينة من الشيخ خوجلي بن عبد الرحمن كفيلة بجلب البركة لمن ينوي مقابلة حاكم أو سلطان)[٣].

هذا الجو العام، والجهل التام بأساسيات الدين، هو الذي جعل الناسَ يتقبلون كل ما يلقى إليهم دون إنكار ولا استغراب إلا في القليل النادر تصديقاً لقوله ﷺ: «ولن تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى تقومَ الساعة أو حتى يأتيَ أمر الله» الحديث وكما جاء في الأثر: «لن تجتمع هذه الأمة على ضلالة».

سنشير في هذه العجالة إلى أَخطر الوقفات، وننبه إلى أعظم الطامات العامة والخاصة، فنقول وبالله التوفيق.

(١) ترجمة رقم ٩٥.
(٢) ترجمة رقم ٤٨.
(٣) ترجمة رقم ٩٤.

الوقفة الأولى

قلة العلم الشرعي وندرة العلماء الأكفاء في السودان:

أولى الملاحظات، وأعظم التنبيهات التي تسترعي قارىء الطبقات قلة العلم الشرعي ـ السني خاصة ـ وندرة العلماء الربانيين الأكفاء في السودان، في الماضي والحاضر، وإلاَّ لَمَا كان لأَهل بلد يسوده العلم الشرعي السني، ويغشاه علماء أكفاء أَنْ يروجَ فيه ما راج في السودان من ترهات وخرافات باسم الدين قديماً وحديثاً بما في ذلك ما حواه كتاب الطبقات من خرافات وأساطير.

هل يحدث في بلد يسوده العلم الشرعي ويعمه الوعي السني أن يعتقد بعض أهله أَنَّ شيخاً من شيوخ الصوفية كان يجر الشمسَ مع الملائكة عند طلوعها وعند غروبها ولمدة أربعين سَنَة كما كان يفعل الشيخ دفع الله «المصوبن» وأن تذاع هذه «الكرامة»!! في الإذاعة في برنامج مع الصالحين كما حدث هذا في السودان وسمعته أُذُنَاي من الإذاعة السودانية في عام ١٩٧٤م؟ وأنه أَحْيا حواراً له يدعى «جَلُوك» بعد أَنْ مات بأيام وبعد أَنْ عجز سيد البشرية عن إحيائه كما تزعم الخرافة؟!!

وأَنْ يُمْدَح بهذه المناقب إلى يومنا هذا:

«الشمس مع المُلاَّك جَرَّها ما غلبو والتمساح حَجَر فِشَان جَلُوك قَلَبُو»

وهل يحدث في بلد فيه علم شرعي، ووعي ديني أَنْ يَدَّعي رجل العيسوية، ثم النبوة، ثم يختم ذلك بالألوهية، ويستمر ينشر هذا الكفر

والضلال، ويعيث في الأرض الفساد، ويخرب عقول الأولاد والبنات، والصغار والكبار، حيناً من الدهر ليس بالقصير ثم عندما هيأ الله للبلاد من يحكم بكفره وردته ثم يحده ويريح الأُمة من شره يحتج البعض على ذلك بحجة أَنَّهُ قُتِلَ قتلاً سياسياً، وأَنْ يمدح بأنه شهيد(١) وأن يتنصل من قتله ويتبرأ من يلقب بالشيخ المجدد كما فعل الترابي؟!

من النفر القلائل الذين بينوا ضلال محمود محمد طه وكفره وَنَادَوْا بردته وَسَعَوْا في ذلك سماحة الشيخ الأمين داود رحمه الله وبعض الأخيار جزاهم الله خيراً.

هل يحدث في بلد فيه علم سني أَن يتبجحَ رَجُل مثل الترابي وينكر كثيراً مما هو معلوم من الدين بالضرورة، نحو إباحته للمسلم أَنْ يرتدَّ عن الإسلام، وإنكاره لحد الردة، ونحو نفيه الكفر عن اليهود والنصارى، ودعواه أَنَّ الاشتغال بالغناء والموسيقى عبادة، ونحو نفيه لعصمة الأنبياء إلاَّ من الناس، وتندره ببعض ما صدر منهم نتيجة نسيان أو اجتهاد بعدما تابوا منه وتنصلوا عنه وغفر لهم؟!

ونحو تشكيكه في عدالة الصحابة، وطعنه في بعضهم، ورده للإجماع ولكثير من الأحاديث التي تلقتها الأمة بالقبول، ونحو زعمه أن سلمان رشدي لعنه الله لو كان عنده في السودان لما حكم بردته على الرغم من سبه للرسول ﷺ ورميه لأمهات المؤمنين بالفاحشة والخنا!!

ثم بعد كل هذا يستمر مترئساً لجماعة إسلامية، ويُقرأ له ويحاضر وتضفى عليه ألقاب مثل الشيخ المجدد وما شاكلها من هذا الهراء؟!

قلت: لقد حق للترابي أن يفتخر بأنه في بلد ضعيف الثقافة، قليل

---

(١) كما فعل بروفسور عبد الله الطيب سامحه الله حيث قال في قصيدة احتج فيها على قتل محمود محمد طه: «هو عندي شهيد»!!!.

وقد أنكر على عبد الله الطيب في حينه الشيخ أحمد البيلي بقصيدة جاء فيها:

إذا المرتد حوكم وفق نص ... وقيل هو الشهيد فبافتئات

وفي قتل المبدل شرع طه ... نذيراً للملاحدة العصاة

العلم الشرعي، وأن ذلك من حسن حظه وفأله الطيب حيث إنه لم ينكر عليه أحد ولم يتصد له غير نفر قليل مبارك حيث إن الكرام في كل وقت وحين قليل، أما العلماء والمشايخ وهيئاتهم فلم تحرك ساكناً كأن الأمر لا يعنيها من قريب ولا من بعيد.

دخل ابن مسعود رضي الله عنه على حذيفة رضي الله عنه فقال له: اعهد إليَّ. قال: أوَلَمْ يأتك اليقين؟ قال: بلى. قال: فإن الضلالة حق الضلالة أنْ تعرف ما كنتَ تنكر وتنكر ما كنتَ تعرف وإياك والتلون في دين الله فإن دين الله واحد(١).

إي والله فإن دين الله واحد وما لم يكن في ذلك اليوم ديناً فلن يكون اليوم ديناً.

بدلاً من أن نلقي باللوم على مؤلف الطبقات ومحققه علينا أَنْ نبينَ ما في هذا الكتاب من منكرات، علينا أَنْ نُعَلِّم الناسَ الدِّين الحق الخالص، فإذا عرفوا دينهم تحصنوا وأمنوا تحريف الغالين، وتأويل المبطلين، وبدع المبتدعين.

يجب على العلماء وطلاب العلم أن يقوموا بدورهم في قيادة المجتمع وريادته وألاَّ يفسحوا المجال للأدعياء، وأنصاف المتعلمين، وأصحاب الأهواء، عليهم أَنْ يبينوا الحق من الباطل. والسُّنة من البدعة، والهدى من الضلال.

عليهم ألا يخشوا في ذلك لومة لائم، وليحذروا كل الحذر منافقة المجتمع فالساكت عن الحق شيطان أخرس، وليتذكروا أن الله أخذ عليهم الميثاق كما أخذه على الذين من قبلهم لبيان الكتاب والسُّنة وللدفاع عنهما والذب عن حياضهما: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾(٢).

كل المواقف السابقة مردها إلى قلة العلم الشرعي، ونذرة العلماء الأكفاء.

---

(١) إسناده صحيح.

(٢) آل عمران: ١٨٧.

الوقفة الثانية

حكم البناء على القبور:

الوقفة الثانية عن حكم البناء على القبور والتعلق بها، وذلك أَن كتاب الطبقات وُشِّحَ بصورتين أولاهما لقبة الشيخ إدريس «ود» الأرباب بالعيلفون والثانية لقبة الشيخ النَّجمي بن الشيخ حمد «ولد» إدريس.

والبناء على القبور لا يجوز ولا يحل وذلك لعدم مشروعيته ولأنه يعد من أقوى أَسباب الشرك وقد سَدَّت الشريعة كل الذرائع التي يمكن أَنْ تؤديَ إلى الشرك ونهى الإسلام عن الغلو في الصالحين وإليك الأدلة:

• عن عائشة رضي الله عنها أن أم سلمة هند بنت أَبي أُمية بن المغيرة المخزومي المعروف بزاد الركب ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة وما فيها من الصور. فقال: «أولئك إِذا مات فيهم الرجل الصالح أَو العبد الصالح بَنَوْا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله»[١].

وفي رواية في الصحيحين أَنَّ أُمَّ سلمة وأُمَّ حبيبة ذكرتا كنيسة رأينها.

• وعن عائشة وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم قالا: لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة على وجهه فإذا اغتم كشفها فقال

---

(١) متفق عليه.

وهو كذلك: «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» قالت عائشة: يحذر ما صنعوا[١].

• وعند ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء والذين يتخذون القبور مساجد»[٢].

• وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج»[٣].

• واستفتى رجل ابن عمر رضي الله عنهما في أَنْ يبني فُسْطاطاً على قبر أَحد فقال له: «لا تفعل إنما يظله عمله»[٤].

وكما حذر الإسلام من البناء على القبور والتعلق بها نهى أَشد النهي، وحذر أبلغ التحذير عن الصلاة إلى القبر والدعاء عنده والتوسل بالأموات وإليك الأدلة:

• خرج البخاري في صحيحه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى أنس بن مالك رضي الله عنه يصلي عند قبر فقال: القبر القبر. محذراً له منه.

• وقال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «الأرض كلها مسجد إلاَّ المقبرة والحمام»[٥].

• وفي صحيح مسلم عن أَبي مرثد الغنوي أَنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها».

فالصلاة لا تجوز إلى قبر ولا في مسجد فيه قبر خاصة إِنْ كان

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه أحمد بسند جيد.

(٣) رواه أحمد وأهل السُّنة.

(٤) البخاري تعليقاً.

(٥) رواه أحمد وأهل السنن وصححه أبو حاتم بن حِبَّان.

جهة القِبْلة، ولا يجوز أَنْ يدفنَ ميت في مسجد، أو يبنى مسجد على قبر، وينبغي لولاة الأمر أَنْ يهدموا القباب والأبنية القائمة على القبور وأَنْ يمنعوا تشييد الجديد منها لا أَنْ يشجعوا ذلك ويفتتحوه فإن في ذلك محادة لله ولرسوله، وعليهم كذلك أَنْ يأمروا بنبش القبور التي بالمساجد وأن ينقلوها إلى مقابر المسلمين.

ولا يحل لمرء يؤمن بالله واليوم الآخر أن ينفذ وصية من أوصى أن يدفنَ في مسجد أَو أَنْ يبنى عليه مسجد أو أي بناء.

قال ابن القيم رحمه الله: قال شيخنا ـ يعني ابن تيمية رحمه الله ـ بعد أَنْ بينَ أَنَّ سبب عبادة وَد ويسوع ويعوق ويغوث ونسراً واللات والعزى إنما كان من تعظيم قبورهم ثم اتخذوا لها التماثيل وعبدوها[١]: (وهذه العلة التي لأَجلها نهى الشارع عن اتخاذ المساجد على القبور وهي التي أوقعت كثيراً من الأُمم إما في الشرك الأكبر أَو فيما دونه من الشرك. فإن النفوس قد أشركت بتماثيل القوم الصالحين، وتماثيل يزعمون أنها طلاسم للكواكب ونحو ذلك فإِن الشرك بقبر الرجل الذي يُعتقد صلاحه أَقرب إلى النفوس من الشرك بخشبة أَو حَجَر ولهذا نجد أهل الشرك كثيراً يتضرعون عندها ويخشعون ويخضعون ويعبدونهم بقلوبهم عبادة لا يفعلونها في بيوت الله، ولا وقت السحر، ومنهم من يسجد لها[٢]، وأكثرهم يرجون من بركة الصلاة عندها والدعاء ما لا يرجونه في المساجد. فلأَجل هذه المفسدة حسم النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم مادتها، حتى نهى عن الصلاة في المقبرة مطلقاً، وإِنْ لم يقصد المصلي بركة البقعة بصلاته، كما يقصد بصلاته بركة المساجد.

---

(١) كما جاء في الصحيح عن عباس وغيره في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ الآية.

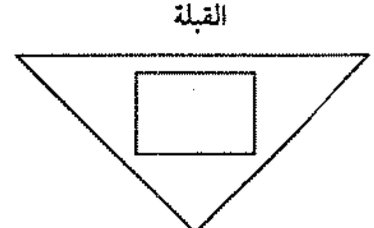
(٢) لقد رأينا من يسجد لها ويطوف حولها ويخشع عندها.

وقال: وأما إذا قصد الرجل الصلاة عند القبور تبركاً بالصلاة في تلك البقعة، فهذا عين المحادة لله ولرسوله، والمخالفة لدينه، وابتداع دين لم يأذن به الله تعالى. فإن المسلمين قد أجمعوا على ما علموه بالاضطرار من دين رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أن الصلاة عند القبور منهي عنها، وأنه لعن من اتخذها مساجد. فمن أعظم المحدثات وأسباب الشرك الصلاة عندها، واتخاذها مساجد، وبناء المساجد عليها. وقد تواترت النصوص عن النبي عليه الصلاة والسلام بالنهي عن ذلك والتغليظ فيه.

فقد صرح عامة الطوائف بالنهي عن بناء المساجد عليها، متابعة منهم للسُّنة الصحيحة الصريحة. وصرح أصحاب أحمد وغيرهم من أصحاب مالك والشافعي بتحريمه. وطائفة أطلقت الكراهة والذي ينبغي أن تحمل على كراهة التحريم إحساناً للظن بالعلماء، وألَّا يظن بهم أَنْ يجوزوا فعل ما تواتر عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم لعن فاعله والنهي عنه)[1].

عليك أخي الحبيب ألاَّ تغتر بالقبة المضروبة على قبره ﷺ فإنها لم تبنَ بأمره ولا بأمر خلفائه الراشدين ولا صحابته المهتدين ولا من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وإنما بناها أحد حكام المماليك في القرن السابع الهجري.

لقد دفن رسولنا محمد ﷺ في المكان الذي مات فيه في حجرة عائشة لقوله ﷺ: «الأنبياء يدفنون حيث ماتوا» وذلك صيانة له ولكي لا يتخذ قبره عيداً بأبي هو وأمي. وكانت حجرة عائشة وكل الحجر خارج المسجد وعندما وسع هشام بن عبد



(١) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان تأليف أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الشهير بابن قيم الجوزية (٦٩١ ـ ٧٥١هـ) طبع دار المعرفة ـ بيروت جـ ١/ ١٨٤ ـ ١٨٥.

الملك المسجدَ أُدخلت فيه الغرفة ولكنها حُدِّت بمثلث رأسه إلى جهة الجنوب كي لا يستقبلها أحد، ودفن خليفتاه معه لمكانتهما منه في الدنيا، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

فالبناء على القبور ليس من عمل المسلمين وإنما هو شعار عباد الأوثان ولا تبنى إلا بإيعاز من الشيطان ولا يجوز لمسلم أن يسعى في ذلك ولا يعين عليه لأن ذلك من باب الإفساد في الأرض ومن باب التعاون على الإثم والعدوان ومعصية الرسول.

واعلم أخي الحبيب هداني الله وإياك إلى الخيرات أن البناء على القبور لو كان خيراً لما غفلت عنه القرون الفاضلة وتنبه له الأواخر، فلو كان خيراً ما سبقوهم إليه ولكنه الشر المستطير ولهذا خافه الأوائل وتجاسر عليه الأواخر لجهلهم وقلة فقههم.

ومما يجب التنبيه إليه أن هناك فرقاً بين زيارة القبور للعظة والاعتبار وهي التي أمر بها الشارع بقوله: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها فإنها تذكرة الآخرة» وبين الزيارة الشركية للأضرحة للدعاء عندها والتوسل بأصحابها، وبين هذا النوع وذاك ما بين السماء والأرض.

الوقفة الثالثة

تعريف الكرامة، وحكمها، ودليلها، وضابطها، والفرق بينها وبين الأحوال الشيطانية:

كتاب الطبقات طافح بالكرامات ومليء بالخوارق مما يحتم على الدارس له أنْ يعرِّفَ الكرامة ويفرِّق بينها وبَيْنَ الأَحوال الشيطانية، والاستدراج، والسحر. وأَنْ يبينَ حكمها ويوضح دليلها وضابطها ولهذا كانت هذه هي الوقفة الثالثة من كتاب الطبقات.

فالكرامة هي أَمر خارق للعادة يجريه اللَّهُ على يد عبد من عباده الصالحين.

وحكمها أنها ثابتة بالكتاب والسُّنة والإِجماع.

ودليلها من الكتاب قصة أصحاب الكهف أولئك الثُّلَّة المؤمنة من الشباب الذين أَنامهم الله ثلاثَمائة عام وازدادوا تسعاً وحال بينهم وبين طاغية زمانهم الذي أراد الفتك بهم.

وكذلك ما جرى لمريم عليها السلام من ولادتها لعيسى من غير أب، ومن كلامه في المهد تبرئة لها وإعجازاً له ومن إطعامها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ الآية.

ودليلها من السُّنة:

عن أَبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى قال: من عادى لي ولياً فقد آذنتُه بالحرب وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أَحب إليَّ مما افترضتُه عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنتُ سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها وإن سألني لأعطيته ولئن استعاذني لأعيذنه»[١].

والمراد بقوله تعالى في الحديث القدسي: «كنتُ سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به» إلى آخر الحديث: لا يسمع إلاَّ ما يُرْضي اللَّهَ ورسولَه فلا يستمع إلى غيبة ونميمة وغناء وموسيقى ونحوها، ولا ينظر إلى ما حرمه الله، ولا تقترف يداه إلاَّ ما أَحل الله ولا تسعى رجلاه في حرام ونحوه.

وليس المراد بها أن يسمع بسمع الله أو أن يبصر ببصره تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً أَنْ يتحدَ بِه أَحد من خلقه فهو مستوٍ على عرشه بائن عن خلقه.

وعن أَبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناس مُحَدَّثُون[٢] فإِنْ يك في أُمتي أَحد فعمر»[٣].

أما الإجماع فقد أجمعت الأمة على ثبوتِ الكرامة المنضبطة بالضوابط الشرعية.

قال الإمام القرطبي رحمه الله: (كرامات الأولياء ثابتة على ما دلت عليه الأخبار الثابتة والآيات المتواترة، ولا ينكرها إلاَّ مبتدع

(١) خرجه البخاري في صحيحه.

(٢) ملهمون، يتحدثون بالشيء فيحدث كما تحدثوا به.

(٣) متفق عليه واللفظ للبخاري ورواه مسلم عن عائشة رقم ٢٣٩٨.

جاحد، أو فاسق حائد، فالآيات ما أخبر الله تعالى في حق مريم من ظهور الفواكه الشتوية في الصيف والصيفية في الشتاء.. وما ظهر على يدها حيث أمر النخلة وكانت يابسة فأثمرت وهي ليست بنبية)[١].

وقال الإمام ابن أبي العز في شرحه للعقيدة الطحاوية[٢]: (وقول المعتزلة في إنكار الكرامة ظاهر البطلان، فإنه بمنزلة إنكار المحسوسات، وقولهم لو صحت لأشبهت المعجزة فيؤدي إلى التباس النبي بالولي، وذلك لا يجوز(!!) وهذه الدعوة تصح إذا كان الولي يأتي بالخارق ويدعي النبوة وهذا لا يقع، وإذا ادعى النبوة لم يكن ولياً بل كان متنبئاً كذاباً).

ضابط الكرامة الأول والأخير هو الاستقامة على أمر الدين، واتباع سُنَّة سيد المرسلين فيما جاء به ولهذا قالوا: أكبر كرامة هي الاستقامة.

واعلم أخي الحبيب أَنَّ إكرام المؤمن الحقيقي هو دخوله دار المقامة حيث لا يمسه فيها نصب ولا لغوب ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ الآية. ولهذا قال أبو علي الجوزجاني: كن طالباً للاستقامة لا طالباً للكرامة فإن نفسك منجبلة على طلب الكرامة وربك يطلب منك الاستقامة.

وقال الشيخ السهروردي في عوارفه كما نقل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عنه[٣]: وهذا الذي ذكره أصل عظيم كبير في الباب وسر غفل عن حقيقته كثير من أهل السلوك والطلاب.

قال مؤلف الطبقات رحمه الله: والكرامة هي الاستقامة مع الله

---

(١) الجامع لأحكام القرآن جـ ١١/٢٨.

(٢) ص ٥٦٢ - ٥٦٣.

(٣) مجموع الفتاوي جـ ١١/ ٣٢٠.

تعالى. وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي: كرامتنا الاستقامة واستقامة واحدة خير من ألف كرامة[١].

ولهذا عندما حكي للإمام الشافعي رحمه الله قول الليث بن سعد: إذا رأَيتم الرجلَ يمشي على الماء فلا تصدقوه ولا تغتروا به حتى تعرضوه على كتاب الله عز وجل. قال الشافعي: لقد قصر الليث، لو رأيتم الرجلَ يمشي على الماء، أو يطير في الهواء فلا تصدقوه ولا تغتروا به حتى تعرضوه على كتاب الله عز وجل فإن الشيطان يطير من المشرق إلى المغرب[٢].

وقال أبو يزيد البسطامي وغيره من مشايخ الصوفية كذلك: لو رأيتم الرجل يطير في الهواء أو يمشي على الماء فلا تغتروا به حتى تنظروا وقوفه عند الأمر والنهي.

وذلك لأنه ليس كل أمر خارق للعادة كرامة فهناك الأحوال الشيطانية، والسحر، والاستدراج، وكلها خوارق للعادات، فالعبرة إذن ليست بحدوث الخارق وإنما العبرة بالمتابعة والاستقامة والالتزام بالشرع فمن كان طائعاً لله ولرسوله مؤدياً للفرائض مكثراً من النوافل ملتزماً بالسُّنة مبتعداً عن البدع والشبه والمعاصي فلا مانع أَنْ يكرمه الله بما شاء، أما إذا كان الشخص معرضاً عن الفرائض، أَو مقصراً فيها بحيث أَنَّه لا يؤدي الصلاة مثلاً مع جماعة المصلين بل يصلي وحده، ويصافح النساء الأجنبيات، ويدخلن عليه، ويمارس بعض الشركيات مثل التمسح بالقبور والدعاء عندها فَأَنَّى له الإكرام من الله عز وجل وهو محارب لله ولرسوله ﷺ؟!

ولهذا سنذكر نماذج من كرامات الصالحين ونتبعها بأخرى من الأَحوال الشيطانية حتى يتضح الفرق بين الكرامة وغيرها.

---

(١) كتاب الطبقات ص ٢٧١ - ٢٧٢.

(٢) مجموع الفتاوي جـ ٦٦٦/١١..

نماذج من كرامات أولياء الله الصالحين:

كرامات أولياء الله الصالحين كثيرة جداً[١]، ولكن سنكتفي ببعض الأمثلة منها:

- إخبار أبي بكر الصديق رضي الله عنه عندما حضرته الوفاة بِأَنَّ في بطن زوجه أُنثى فكانت كما قال.
- وقول عمر وكان يخطب بالمدينة: «يا سارية الجبل» فسمعها سارية وهو بنهاوند فانحاز إلى الجبل وكان ذلك سبباً لانتصار المسلمين وعندما سئل عنها عمر قال: هي كلمة أجراها الله على لساني.
- ومنها شرب خالد بن الوليد رضي الله عنه لسم ساعة ولم يضره عندما تحداه المشركون بأرض فارس.
- ومنها جعل النار برداً وسلاماً على أَبي مسلم الخولاني ـ كما حدث لإبراهيم الخليل عليه السلام ـ عندما قذفه فيها عدو الله وعدو نفسه المتنبي المدعو بالأسود العنسي.
- ومنها مخاطبة سَفِينة مولى رسول الله ﷺ للأسد وإدلال الأسد له على الطريق ومشيه معه ووداعه له آخر الأمر.

نماذج للأحوال الشيطانية، والاستدراج، والسحر:

الخوارق سوى الكرامة أنواع متعددة، منها ما يكون عن طريق الشيطان ومنها ما يكون عن طريق السحر والشعوذة والدجل ومنها ما يكون استدراجاً، وكلها خوارق لأولياء الشياطين.

ورحم الله ابن عمر ورضي عنه، عندما قالوا له: إنَّ المختار ابن أَبي عبيد الثقفي زعم أنه يوحى إليه وكان هو أحد الدجاجلة، قال:

---

(١) انظر مثلاً كتابنا الطريق إلى ولاية الله ص ٢٩٥ إلى ص ٣٤٣.

صدق. ثم تلا قول الله عز وجل: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾[١] فعلى قدر إفك المرء وإثمه يوحي إليه أولياؤه من الشياطين.

قال الحبر الرباني والولي المتفاني شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه: (فهؤلاء المبتدعون المخالفون للكتاب والسُّنة أحوالهم ليست من كرامات الصالحين إنما تكون الكرامات لأولياء الله المتقين الذين قال الله فيهم: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾[٢] وهم الذين يتقربون إلى الله بالفرائض التي فرضها عليهم، ثم بالنوافل التي ندبها لهم... وأما أهل الشرك والبدع والفجور فأحوالهم من جنس أحوال «مسيلمة الكذاب» و«الأسود العنسي» اللذين ادعيا النبوة في آخر أيام النبي ﷺ وكان لكل منهما شياطين تخبره وتعينه)[٣].

فمن أمثلة ذلك:

- ما حصل لعبد الله بن الصياد ذلك اليهودي من يهود المدينة في عهد النبي ﷺ حتى ظن بعض الصحابة أنه المسيح الدجال وَهَمَّ عمرُ بقتله، وقد توقف النبي ﷺ في أمره أول الأمر حتى تبين له أنه من جنس الكهان. قال له النبي ﷺ: «قد خبأتُ لك خبئاً» قال: الدخ الدخ. وكان ﷺ خبأ له سورة الدخان. فقال له ﷺ: «اخسأ فلن تعدو قدرك» يعني إنما أنت من إخوان الكهان الذين كان لأحدهم القرين من الشياطين فيخبره بكثير من المغيبات مما يسترقه من السمع وكانوا يخلطون الصدق بالكذب، فقد جاء في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الملائكة تنزل في العنان وهو السحاب فتذكر الأمر

---

(١) الشعراء: ٢٢١ ـ ٢٢٢.

(٢) يونس: ٦٢ ـ ٦٣.

(٣) مجموع فتاوي شيخ الإسلام ابن تيمية جـ ١١/٦٦٥ ـ ٦٦٦.

قُضِيَ في السماء فتسترق الشياطين السمع فتوحيه إلى الكهان فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم» الحديث[١] ولكن عندما أوحي إلى النبي ﷺ أحكم الأمر وَحُرِمَت الشياطين من ذلك، حيث حكى القرآن عنهم: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْآنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾[٢].

- ومن ذلك ما كان يحدث لمسيلمة الكذاب من إخبار الشياطين له ببعض الغيبيات وإعانتهم له في بعض الأمور.

- ومن هؤلاء الشياطين من كان يخبر الأسود العنسي عندما ادعى النبوة بصنعاء اليمن، فلما قاتله المسلمون خافوا من إخبار الشياطين وإعانتهم له حتى أعانتهم عليه زوجه لما تبين لها كفره فقتلوه.

- ومن ذلك ما كان يحدث للحارث الكذاب الدمشقي الذي خرج في زمن عبد الملك بن مروان رحمه الله وادعى النبوة، وكانت الشياطين تخرج يديه من القيد، وتمنع السلاح أن ينفذ فيه، وكانت هناك رخامة تسبح بحمده إذا مسحها بيده وكان يري الناس رجالاً وركباناً على خيل في الهواء ويقول هي الملائكة وإنما كانوا جِناً.

ولما أمسكه المسلمون ليقتلوه طعنه الطاعن بالرمح فلم ينفذ فيه، فقال له عبد الملك: إنك لم تسم الله، فسمى الله فطعنه فقتله[٣].

والشياطين لا تعين أحداً إلاَّ بمقابل وبعد أَنْ تملي عليه شروطها نحو أَنْ يفطر يوماً من رمضان، أَو أَن يضع عذرة على المصحف، أو أَنْ يصليَ وقتاً بغير وضوء، أَو أَنْ يتركَ الجمعة وهكذا، فإذا قبل ما شرطه عليه الشيطان وباع آخرته بدنياه الفانية وَفيَّ الشيطانُ بما وعده به،

(١) انظر المصدر السابق ص ٢٨٣.
(٢) الجن: ٩.
(٣) انظر المصدر السابق ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥.

نحو أنْ يأتيه الشيطان بطعام وفواكه وحلوى وغير ذلك مما لا يكون موجوداً في بلده، ونحو أنْ يطيرَ به الجني إلى مكة، أو بيت المقدس، ونحو أن يحمله عشية عرفة إليها ثم يعيده في ليلته فلا يحج حجاً كاملاً، فقد خسر الدنيا والآخرة.

وإغواء الشيطان ليس قاصراً على كل أفاك أثيم فحسب بل يتعداه إلى محاولة إغواء الصالحين والعُبَّاد فمن كان ذا فقه ودراية ينجيه الله بفقهه في الدين ومن كان ناقص الفقه أو عديمه يقع في شراكه، من ذلك ما حدث للشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله ولغيره عندما تراءى له الشيطان وقال له: أنا ربك فقد أَبحتُ لك ما حرمتُه على خلقي. فقال له عبد القادر الجيلاني: اخسأ يا عدو الله. فقال له الشيطان: لقد أضللتُ بذلك خلقاً كثيراً ونجوتَ مني بفقهك أو ما معناه، قيل لعبد القادر: كيف عرفتَ أنه شيطان؟ قال: بقوله لقد أحللتُ لك ما حرمتُه على خلقي.

هذا على الرغم من علم الشيطان أن الله حافظ لعباده المخلصين حيث قال مخاطباً الشيطان: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ الآية[1].

بهذه الضوابط الشرعية، وبهذا الميزان الشرعي نستطيع أنْ نحكمَ على كل ما جاء في الطبقات أو في غيرها، هل هو من باب كرامات الصالحين أم من باب الاستدراج والأحوال الشيطانية لأولياء الشيطان؟!

سنبين بعض ذلك في الفصل الثاني إنْ شاء الله، في الوقفات الخاصة مع بعض ما نسب إلى بعض المشايخ من ذلك.

---

(١) الإسراء: ٦٥.

الوقفة الرابعة

يُتلقى العلم بملازمة العلماء وبالمدارسة ولا يلقن تلقيناً من غير ذلك الطريق:

يذكر الشيخ محمد نور بن ضيف الله في تراجم بعض المشايخ أنهم تلقوا العلم من غير أن ينظروا في كتاب أو يجلسوا إلى شيخ ومع ذلك فقد جمعوا علم الأولين والآخرين، فيقول عن الشيخ إدريس بن محمد الأرباب مثلاً: (الباب الثالث في ألفاظه الجامعة لحكمة الحكماء، وعلم العلماء، غير أَنْ ينظرها في كتاب. الباب الرابع في كلامه على الأَفلاك العلوية وأَحوال حملة العرش، وفي العالم السفلي إلى ما تحت الثرى.

ثم شرح ذلك بقوله: فكان أكابر العلماء يكونون بين يديه كالأطفال، ولا يوجد له كتاب إلا متن رسالة في علوم الأولين والآخرين وجد في عيبته بعد وفاته. ففي أول بدأ أمره أنكر عليه الناس ورموه بالكذب والزور والبهتان.

وقال عنه في موضع آخر أنَّه جاءه مستفتي فقال له: أين صاحب السبعة عشر مسألة فليأتي بها. فأتى بها فأجابه فيها مسألة مسألة: الفقهية أجاب فيها على اصطلاحها، والتوحيدية والصوفية. وكل واحد أجابه فيما سأل. فمن ذلك أيقنوا أن علمه يغترفه من اللوح المحفوظ)[1].

(١) الترجمة رقم (٦) ص ٤٩، ٥١، ٥٥.

ونقل عن الشيخ عبد الرازق أبوقرون أنه قال للشيخ أَبي القاسم الجنيد بن الشيخ علي النيَّل، عندما أرادوا أَنْ يُخَلِّفُوا الجنيد بعد والده: (يا عمي أنا ما قرأت العلم) قال له: (أبشر بالخير سكنْتَ ومكنْتَ). فقام الشيخ الجنيد مقام أبيه الشيخ علي في السلوك وتربية المريدين وإرشادهم وأعطى القبول التام عند الخاص والعام[(١)].

وقال عن القدال بن إبراهيم عبودي: (وكان من صغره ينطق بعلم الغيب. وكان جسيماً فرآه رجل فقال: جسامة بلا أكل وشرب. فقال له مكاشفاً: «صنع الله الذي أتقن كل شيء»[(٢)].

في حين أن العلم بالتعلم وبملازمة العلماء ومزاحمتهم بالركب والتلقي عنهم والأخذ منهم، ولو كان العلم بدون تعلم ومعلم ممكناً لحازه رسول الله ﷺ، فعندما جاءه جبريل بغار حراء وقال له: اقرأ. قال: ما أنا بقارىء. ثم كررها عليه فقال: ما أنا بقارىء، وفي الثالثة علمه وقال له: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ الآيات.

ما حكاه صاحب الطبقات هذا هو مسلك كثير من المتصوفة قديماً وحديثاً، وهو أمر ليس له مستند ولا دليل، ورحم الله «ود الخَبِير» أحد شيوخ السودان المعاصرين عندما سأل أحدهم وقال له: ممن تلقيتَ العلم؟ فقال له: لَقَنٌ. فما كان منه إلاَّ أَنْ قال له: قم يا شيطان.

فما يفعله بعض الصوفية إنما هو من تلبيس الشيطان عليهم كما قال الحافظ ابن الجوزي رحمه الله تحت باب «ذكر تلبيس إبليس على الصوفية في ترك التشاغل بالعلم»: (اعلم أَنَّ أول تلبيس إبليس على الناس صدهم عن العلم لأن العلم نور، فإذا أطفأ مصابيحهم خبطهم في الظلم كيف شاء. وقد دخل على الصوفية في هذا الفن من أبواب[(٣)]

---

(١) الترجمة رقم (١٠) ص ٧٠ - ٧١.
(٢) ترجمة رقم ٢٠ ص ٨١.
(٣) انظر تلبيس إبليس لابن الجوزي المتوفى ٥٩٧هـ - طبع دار الكتب العلمية - بيروت - ص ٣٢٠ والصفحات التي تليها.

أحدها: أنه منع جمهورهم من العلم أصلاً وأراهم أنه يحتاج إلى تعب وكلف، فحسن عندهم الراحة فلبسوا المراقع، وجلسوا على بساط البطالة.

ثم روى بسنده عن ابن صاعد قال: سمعتُ الشافعي رضي الله عنه يقول: أُسِّسَ التصوفُ على الكسل.

وروى عن حفص بن شاهين أنه قال: ومن الصوفية من ذم العلماء ورأى أن الاشتغال بالعلم بطالة وقالوا: إن علومنا بلا واسطة وإنما رأوا بُعْدَ الطريق في طلب العلم، فقصروا الثياب، ورقعوا الجباب، وحملوا الركاء وأظهروا الزهد.

الثاني: أنَّه قَنَّع قوماً منهم باليسير منه ففاتهم الفضل الكثير في كثرته. فاقتنعوا بأطراف الأحاديث وأوهمهم أن علو الإسناد والجلوس للحديث كله رياء ودنيا وأن للنفس في ذلك لذة. وكشف هذا التلبيس أنَّه ما من مقام عالٍ إلاّ وله فضيلة وفيه مخاطرة، فإن الإمارة والقضاء والفتوى كله مخاطرة وللنفس فيه لذة ولكن فضيلته عظيمة كالشوك في جوار الورد فينبغي أن تطلب الفضائل ويتقى ما في ضمنها من الآفات.

ثم حكى قول يزيد بن هارون: طلبنا العلم لغير الله فأَبى إلاَّ أَنْ يكونَ لله. ومعناه أن العلم دلهم على الإخلاص.

والثالث: أنه أوهم قوماً منهم أن المقصود العمل وما فهموا أن التشاغل بالعلم من أوفى الأعمال، وإن قصر سير عمله فهو على الجادة والعابد بغير علم على غير الطريق.

والرابع: أنه أَرى خلقاً كثيراً منهم أن العلم ما اكتسب من البواطن حتى أن أحدهم يتخايل له وسوسة فيقول حدثني قلبي عن ربي. وكان الشبلي يقول:

إذا طالبوني بعلم الوَرَق ... برزتُ عليهم بعلم الخِرَق

ثم روى بسنده إلى إبراهيم سبتية أنه قال: حضرت مجلس أبي يزيد البسطامي والناس يقولون: فلان لقي فلان وأخذ عن علمه، وكتب منه الكثير، وفلان لقي فلاناً. فقال أبو يزيد: مساكين أخذوا علمهم ميتاً عن ميت وأخذنا علمنا من الحي الذي لا يموت[١].

ثم قال معلقاً على مقالة أبي يزيد الشنيعة هذه:

واعلم أن العلم الإلهي الملقى في القلوب لا يكفي عن العلم المنقول، كما أن العلوم العقلية لا تكفي عن العلوم الشرعية فإن العقلية كالأغذية والشرعية كالأدوية ولا ينوب هذا عن هذا.

وأما قوله: أخذوا علمهم ميتاً عن ميت. أصلح ما ينسب إليه هذا القائل أنه ما يدري ما ضمن هذا القول، وإلا فهذا طعن في الشريعة.

ثم روى بسنده عن أبي حفص بن شاهين أنه قال: من الصوفية من رأى الاشتغال بالعلم بطالة، وقالوا: نحن علومنا بلا واسطة. قال: وما كان المتقدمون في التصوف إلاَّ رؤساء في القرآن والحديث والتفسير ولكن هؤلاء أحبوا البطالة.

وقال أبو حامد الطوسي[٢] مبرراً عزوف المتصوفة عن العلم بمبرر ما كان ينبغي أن يصدر من مثله وذلك لأنه فقيه وعالم: (اعلم أن ميل أهل التصوف إلى الألوهية دون التعلمية، ولذلك لم يتعلموا ولم يحرصوا على دراسة العلم وتحصيل ما صنفه المصنفون، بل قالوا: الطريق تقديم المجاهدات بمحو الصفات المذمومة، وقطع العلائق كلها، والإقبال على الله تعالى بكنه الهمة. وذلك بأن يقطع الإنسان همه عن الأهل والمال والولد والعلم[٣] ويخلو بنفسه في زاوية ويقتصر على

(١) وقد سمعنا ذلك من بعض الصوفية اليوم، حيث قال أحدهم إن علمهم غض وأنكم تأخذون عن الأموات.

(٢) الغزالي رحمه الله.

(٣) كيف وقد قال تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فبدأ بالعلم قبل العمل؟!.

الفرائض والرواتب، ولا يقرن همه بقراءة قرآن، ولا بالتأمل في نفسه، ولا يكتب حديثاً ولا غيره، ولا يزال يقول: الله الله إلى أن ينتهي إلى حال يترك تحريك اللسان ثم يمحو عن القلب صورة اللفظ!!!

قال ابن الجوزي معلقاً على كلام أبي حامد هذا:

عزيز علي أن يصدر هذا الكلام من فقيه، فإنه لا يخفى قبحه، فإنه على الحقيقة طي لبساط الشريعة التي حثت على تلاوة القرآن وطلب العلم.

وعلى هذا المذهب فقد رأيت الفضلاء من علماء الأمصار فإنهم ما سلكوا هذا الطريق[1] وإنما تشاغلوا بالعلم أولاً. وعلى ما قد رتب أبو حامد تخلو النفس بوساوسها وخيالاتها، ولا يكون عندها من العلم ما يطرد ذلك فيلعب بها إبليس أي ملعب فيريها الوسوسة محادثة ومناجاة. ولا ننكر أنه إذا طهر القلب انصبت عليه أنوار الهدى فينظر بنور الله إلا أنه ينبغي أن يكون تطهيره بمقتضى العلم لا بما ينافيه فإن الجوع الشديد والسهر وتضييع الزمان في التخيلات أمور ينهى الشرع عنها فلا يستفاد من صاحب الشرع شيء ينسب إلى ما نهى عنه كما لا تستباح الرخص في سفر قد نهي عنه.

ثم لا تنافي بين العلم والرياضة، بل العلم يُعَلِّم كيفية الرياضة ويعين على تصحيحها، وإنما تلاعب الشيطان بأقوام أَبعدوا العلم وأقبلوا على الرياضة بما ينهى عنه العلم. والعلم بعيد عنهم).

قلت: كيف لا يلام الغزالي على تشجيعه على ترك العلم وأمره بالعزلة ودخول الخلوات وقد عاب تلاميذ حمد النحلان عليه هجره للعلم وتركه لطلابه عندما دخل خلوته.

---

(١) الحمد لله أنهم لم يسلكوها، وكيف يسلكونها وهي مخالفة لما جاء به سيد الخلق وصحابته والسلف الأخيار؟!.

قال مصنف الطبقات في ترجمة حمد النحلان بن محمد البديري المشهور بابن الترابي: (قرأ خليل على الفقيه محمد ولد التنقار في مويس وبرع فيه فأخذ فيه عشر ختمات، ثم اتخذ مذهب التصوف وانقطع إلى الله تعالى، وتزهد، وسلك على الشيخ دفع الله[1] وأرشده، واجتمع بالسيد الخضر وأخذ عليه.

ثم نقل عن تلميذه حمد أبي كسيبة قال: بنقرأ خليل عند الشيخ حمد إذ جاء الشيخ دفع الله لزيارة الشيخ إدريس وهو يومئذ ميت. فلما رجع قطع الهوى[2] من الغابة العيدوية. فلما سمع ناس الحَلاَّل دخلوا الهوى تلقوه ناس البشاقرة، وأبو مغد[3]، والكسنبر طلبوا من الشيخ النزول عندهم فقرق الشيخ عليهم إخوانه: بريرة، وحموده ومعاه الفقرا، فجاء فنزل عند الفقيه نَنَّه وحمد أَخوه. . . فدخل عليه[4] حمد بعد العشاء وخرج منه بعد الفجر شايل سبحة هجليج ألفية.

قال أبو كسيبة: فلما رجعنا من تشييع الشيخ[5] سألنا خادم الشيخ حمد: يا بخيتة أين سيدك؟ قالت: سيدي مِنْ مَا رَوَّح الشيخ سد خلوته، ما فتحها، لا لأكل، ولا لشرب. قال: جينا ناغمناه قلنا له: افتح الخلوة، اقرأ لنا. قال: يا أبو كسِّيبة أنا وخليل افترقنا إلى يوم القيامة، شيل ولد التنقار. قلنا له: تدخل الخلوات تهمل أولادك.

إلى أن قال: ومكث في الخلوة اثنين وثلاثين شهراً. وشال[6] ثلاث سلقاً[7] قرص، وسبع تمرات، والخلوة فيها طاقة يناولوه بها الماء

---

(١) ابن الشيخ أبو إدريس العركي.

(٢) النيل الأزرق إلى الضفة الغربية من عند موضع قرية العيدج الحالي.

(٣) أم مغد، كانت تعرف بأبي مغد وأم مغد.

(٤) أي على الشيخ دفع الله.

(٥) أي وداع الشيخ دفع الله.

(٦) أخذ بالعامية السودانية.

(٧) جمع سلقة: ملء الكف من الشيء.

وكل ليلة مُطَّالة[١] قدر عين الجمل لفطوره. فلما خرج من الخلوة وجدوا المطاطيل على حالها والركوة ملانة ماء. فجميع من شرب منها وقع مغشياً عليه وصار ولياً[٢] من أولياء الله(!!!))[٣].

وفي رواية غير كتاب الطبقات المطبوع هذا أنه هو وأخوه النتة أرادا أن يعبرا النيل الأزرق إلى الشرق فلم يجدا مركباً فوضع النَّتة فروته على النيل وعبرت به، وجلس هو متحيراً فالتفتَ إليه النتة قائلاً: انتظر خليل يعبرك النيل أو ما معناها ومن حينها طلق الفقه وخليل طلقة بائنة.

قلت: من عجيب أمر الصوفية استدلالهم على هذا المسلك المشين، والطريق العقيم المؤدي إلى العطالة والبطالة بقوله عز وجل: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ﴾[٤] وما علم هؤلاء أَنَّ أَساس التقوى وقوامها العلم والفقه وأنه لا تقوى تنال ولا كرامة تكتسب بدون علم.

ولو كان مراد الآية كما فهمه هؤلاء لما أجهد السلف الصالح أنفسهم وأَفنوا أَعمارهم في طلب العلم والحصول عليه وكانوا أولى بالتلقين والإلهام من هؤلاء المتخلفين عن منهج رسول الله ﷺ وصحبه الكرام.

فها هو جابر بن عبد الله رضي الله عنهما يشتري دابة ويذهب بها إلى الشام مسيرة شهر كامل ليسمع حديثاً، يقول جابر: بلغني حديث عن أصحاب رسول الله ﷺ فابتعتُ بعيراً، فشددتُ عليه رحلي، ثم سرت إليه شهراً حتى قدمت الشام، فإذا عبد الله بن أُنيس الأنصاري، فأتيتُ منزله، وأرسلتُ إليه أَنَّ جابراً على الباب، فرجع إليَّ الرسول فقال: جابر بن عبد الله؟ قلت: نعم، فخرج إليَّ فاعتنقته واعتنقني. قال:

---

(١) قطعة من القرص.

(٢) ما أرخص الولاية إذن وأهونها على الله إذا كانت تنال بمثل ذلك.

(٣) كتاب الطبقات ترجمة رقم ٧٩ ص ١٦١.

(٤) البقرة:٢٨٢.

قلت: حديث بلغني عنك أنك سمعته من رسول الله ﷺ في المظالم لم أسمعه أنا منه. قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «يحشر الله تبارك وتعالى العباد» أو قال الناس ـ شك هَمَّام[١] ـ وأومأ بيده إلى الشام عراة غرلاً بُهْماً، قال: قلنا: ما بُهْماً؟ قال: «ليس معهم شيء، فيناديهم بصوت يسمعه من بَعُد ويسمعه من قَرُب: أَنا المَلِكُ أَنَا الديان، لا ينبغي لأحد من أهل الجنَّة أَنْ يدخل الجنَّة وأحد من أهل النار يطلبه بمظلمة حتى اللطمة، ولا ينبغي لأحد من أهل النار أَنْ يدخل النار وأَحد من أهل الجنَّة يطلبه بمظلمة حتى اللطمة». قال: قلنا له: كيف وإنما نأتي الله عراة حفاة غرلاً؟ قال: «من الحسنات والسيئات»[٢].

وما فعله جابر فعله أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه فقد رحل إلى عقبة بن عامر أمير مصر من أجل سماع حديث لَم يسمعه غيرهما وهو: «من ستر مؤمناً على خزية ستر الله عليه يوم القيامة»[٣].

وقال ابن عباس رضي الله عنه: كان يبلغني الحديث عن الرجل من أصحاب النبي ﷺ فلو أشأ أَنْ أَرسل إليه حتى يجيء فيحدثني فعلت ولكني كنت أذهب إليه فأقبل على بابه حتى يخرج إلي فيحدثني[٤].

وقال سعيد بن المسيب: «إن كنت لأسير الليالي والأيام في طلب الحديث الواحد»[٥].

وقال الشافعي مبيناً قدر ما بذله في طلب العلم وتحصيله: (كنت يتيماً في حجر أمي فدفعتني في الكتَّاب ولم يكن عندها ما تعطي المعلم،

---

(١) راوي الحديث عن جابر.
(٢) الحديث صحيح صححه الحاكم ووافقه الذهبي.
(٣) الحديث صحيح.
(٤) قال محقق جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر: صحيح جـ ١/ ٣٩٣.
(٥) صحيح، المصدر السابق جـ ١/ ص ٣٩٥.

فكان المعلم قد رضي مني أَنْ أَخلفه إذا قام، فلما ختمتُ القرآن دخلتُ المسجد فكنتُ أجالس العلماء وكنتُ أسمع الحديث أو المسألة فأحفظها، ولم يكن عند أمي ما تعطيني أَنْ أشتريَ به قراطيس قط، فكنتُ إذا رأيتُ عَظْماً يلوح آخذه فأكتب فيه، فإذا امتلأ طرحته في جُرَّة كانت لنا قديمة)[١].

يقول الإمام الأصولي المالكي أبو إسحاق الشاطبي المتوفى ٧٩٠هـ في كتابه[٢] الجليل القدير: (من أنفع طرق العلم الموصلة إلى غاية التحقق به أخذه من المتحققين به على الكمال والتمام. وذلك أن الله خلق الإنسان لا يعلم شيئاً، ثم علَّمه وبصَّره، وهداه طرق مصلحته في الحياة الدنيا غير أن ما علمه من ذلك ضربين: ضرب منها ضروري، داخل عليه من غير علم من أين؟ ولا كيف؟ بل هو مغروز فيه من أصل الخلقة، كالتقامه الثدي ومصه له عند خروجه من البطن إلى الدنيا، هذا من المحسوسات. وكعلمه بوجوده، وأن النقيضين لا يجتمعان من جملة المعقولات. وضرب منها بواسطة التعليم، شعر بذلك أو لا، كوجوه التصرفات الضرورية نحو محاكاة الأصوات والنطق بالكلمات ومعرفة أسماء الأشياء في المحسوسات، وكالعلوم النظرية التي للعقل في تحصيلها مجال ونظر في المعقولات.

وكلامنا من ذلك فيما يفتقر إلى نظر وتبصر فلا بد من معلم فيها وإن كان الناس قد اختلفوا[٣]: هل يمكن حصول العلم دون معلم أم لا؟ فالإمكان مسلَّم[٤]. ولكن الواقع في مجاري العادات أَنْ لا بد من

---

(١) المصدر السابق جـ ١/ص ٤١٣.

(٢) الموافقات في أصول الفقه جـ ١/ ٩١ ـ ٩٢.

(٣) ليس كل خلاف يُعتد به ويستراح له إذ الخلاف المعتبر هو الذي يقوم على دليل شرعي لا منازعة فيه.

(٤) يعني عن طريق التعامل مع الكتب وليس عن طريق العصمة كما يقول الرافضة أو طريق التلقين والكشف كما يقول المتصوفة.

المعلم. وهو متفق عليه في الجملة، وإنْ اختلفوا في بعض التفاصيل، كاختلاف جمهور الأمة والإمامية[1] وهم الذين يشترطون المعصوم - والحق مع السواد الأعظم الذي لا يشترط العصمة من جهة أنها مختصة بالأنبياء عليهم السلام، ومع ذلك فهم مقرون بافتقار الجاهل إلى المعلِّم، عِلْماً كان المعلَّم أو عملاً. واتفاق الناس على ذلك في الوقوع وجريان العادة به كافٍ في أنه لا بد منه.

وقد قالوا: «إن العلم كان في صدور الرجال، ثم انتقل إلى الكتب، وصارت مفاتحه بأيدي الرجال» وهذا الكلام يقضي بأن لا بد في تحصيله من الرجال، إذ ليس وراء هاتين المرتبتين مرمى عندهم. وأصل هذا في الصحيح: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس، ولكن يقبضه بقبض العلماء» الحديث، وإذا كان كذلك فالرجال هم مفاتحه بلا شك).

اعلم أخي المسلم الحبيب الموفق إلى كل خير أنه يجب على المكلف أن يعرف ما يجب عليه من أمر الدين وأَنْ يعرفَ حق الله وحق الرسول ﷺ وأَنْ يعرف لوازم الإسلام ونواقضه وليس له من سبيل لمعرفة ذلك إلاَّ أَخذ العلم الشرعي وتعلمه فما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب كما هو مقرر في الشرع.

طلب العلم والاشتغال به أفضل بكثير من نوافل العبادات، ولهذا جاء في الأثر: «لعالم واحد أشد على الشيطان من ألف عابد» لأن العلم نفعه متعد والصلاة لا تفيد إلا صاحبها، هذا إن كانت على منهج رسول الله ﷺ أما إن كانت من المحدثات فهي مردودة على صاحبها بحكم رسول الله ﷺ «مَنْ أَحْدَثَ في أَمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» الحديث.

---

(١) الرافضة ـ الشيعة.

الوقفة الخامسة

ممن يتلقى العلم والسلوك؟ وما كيفية ذلك التلقي؟

بعد أن ثبت لنا أنه يجب على كل المكلفين أَنْ يعلموا ما أوجبه الله عليهم من أمر دينهم وأنه يجب على طائفة من المسلمين أن يتخصصوا ويتفقهوا في دين الله تخصصاً دقيقاً، فإذا أهملت الأمة كلُّها ذلك التخصص الدقيق أثِمَت. قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[1] ولهذا أمر العامة بسؤال الخاصة فقال جل ثناؤه وتقدست أسماؤه: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾[2] ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[3].

قال القرطبي عن آية التوبة السابقة: (هذه الآية أصل في وجوب طلب العلم)[4].

ثم بين أقسام طلب العلم فقال: (طلب العلم ينقسم إلى قسمين: فرض على الأعيان، كالصلاة والزكاة والصوم... وفرض على الكفاية، كتحصيل الحقوق وإقامة الحدود، والفصل بين الخصوم ونحوه إذ لا يصح

(١) التوبة: ١٢٢.
(٢) والمراد بالذكر هنا هو العلم والفقه في الدين بدليل قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.
(٣) النحل: ٤٣.
(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي جـ ٨/٢٩٣.

أَنْ يتعلمه جميع الناس فتضيع أحوالهم وأحوال سراياهم وتنقص أو تبطل معايشهم، فتعين بين الحالين أَنْ يقومَ به البعض من غير تعيين، وذلك بحسب ما يسره الله لعباده وقسَّمه بينهم من رحمته وحكمته بسابق قدرته وكلمته)[١].

فالعلم بقسميه فرض العين والكفاية وكذلك السلوك والأدب لا يتلقيان إلا من المشايخ الأكفاء، والعلماء الربانيين، والفقهاء المقتدى بهم أو ممن أخذ منهم، الذين هم على ما كان عليه رسول الله ﷺ وصحبه الكرام والسلف الأخيار في العقيدة والتصور والمنهج والسلوك لأن العلم دين فلينظر أحدنا ممن يتلقى دينه وعمن يأخذ هدى نبيه وسُنّة حبيبه ﷺ.

فالعلم والسلوك لا يؤخذان إلاَّ ممن أَراد الله بهم خيراً حيث قال ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» الحديث خاصة في آخر الزمان عندما يقبض العلم بموت العلماء ويفشو الجهل ويتخذ الناس الرؤساء الجهال الضالين المضلين.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله لا يقبض العلم ينزعه انتزاعاً من قلوب الرجال ولكن يقبضه بقبض العلماء، فإذا لم يترك عالماً اتخذ الناس رؤساء جهالاً فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا»[٢].

من لا يؤخذ عنهم العلم:

العلم والسلوك يؤخذان من كل عالم مسلم مستور الحال، إلا من أربعة هم:

١ ـ مبتدع داع لبدعته.

٢ ـ فاسق مجاهر بفسقه.

---

(١) المصدر السابق ص ٢٩٥.

(٢) متفق عليه البخاري رقم (١٠٠) ومسلم رقم (٢٦٧٣).

٣ ـ كذاب مشتهر بالكذب.

٤ ـ غافل.

قال مالك رحمه الله: (لا يؤخذ العلم عن أربعة: سفيه معلن السفه، وصاحب هوى يدعو الناس إليه، ورجل معروف بالكذب في أحاديث الناس وإن كان لا يكذب على رسول الله ﷺ، ورجل له فضل وصلاح لا يعرف ما يحدث به)[١].

وروى عن مالك رحمه الله أنه قال: (أدركت بهذا المسجد يعني مسجد رسول الله ﷺ سبعين شيخاً ممن لو استسقى بهم الناس لسقوا ـ يعني من صلاحهم ـ ما أخذت منهم حديثاً واحداً لأنهم ليسوا من أهل هذا الشأن). أو كما قال.

فهؤلاء لا يؤخذ عنهم الحديث ولا السلوك وإن كانوا أعلم الناس وأزهدهم ولا يجوز الاقتراب منهم ولا أن تغشى مجالسهم.

العلماء هم المرشدون المربون وكان سلفنا الصالح رضوان الله عليهم يتلقون من العلماء العلم والأدب والسلوك جميعاً ولم تكن عندهم هذه الازدواجية بين العلم والسلوك بحيث يأخذون العلم من أحد ويأخذون الأدب والسلوك من شخص آخر، وإليك الأدلة[٢]:

قال ابن وهب: ما تعلمتُ من أَدب مالك أَفضل من علمه.

وقال عبد الله بن المبارك رحمه الله:

أيها الطالب علماً ائت حماد بن زيد

فاقتبس حلماً وعلماً ثم قيده بقيد

---

(١) إسناده حسن كما قال محقق جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر وقال أخرجه ابن عبد البر في التمهيد جـ ٦٦/١.

(٢) انظر جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر جـ ٥٠٩/١ والصفحات التي تليها.

وذكر محمد بن الحسن الشيباني عن الإمام أبي حنيفة قوله: (الحكايات عن العلماء ومجالستهم أحب إِلَيَّ من كثير من الفقه لأنها آداب القوم وأخلاقهم).

وقال إبراهيم النخعي ومحمد بن الحسن الشيباني: (كنا نأتي مسروقاً[١] فنتعلم من هديه ودله.

وقال أبو الدرداء: من فقه الرجل ممشاه ومدخله ومخرجه مع أهل العلم.

والأدلة على ذلك لا تحصى كثرة ولا أدل من هذا وغيره على ارتباط الأدب والسلوك بالعلم من قوله ﷺ: «إِنَّ الهديَ الصالح والسَّمْتَ الصالح جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة» الحديث.

تقسيم المشايخ إلى شيوخ علم وشيوخ طريقة وسلوك تقسيم ما أَنزل الله به من سلطان وهو مما ابتدعه متأخرو الصوفية، وليت لكل أحد منهم شيخ علم وشيخ مربي، بل اقتصروا على شيوخ الطريقة في التعليم والتربية وسلوك الطريق. ولو كان هؤلاء الشيوخ علماء لما اعترضنا على ذلك ولكن جل المشايخ المتأخرين في الحاضر والماضي ليسوا بعلماء وذلك لأن الولاية عند المتصوفة تقوم على الوراثة وتعتمد على الكشف فإذا مات الشيخ خلفه ابنه أياً كان سلوكه ودرجة علمه فَما هي إلاَّ لحظات بعد تسنمه لخلافة أَبيه حتى يصبح عالماً ومرشداً ومربياً يفتي ويرشد ويعطي الطريق. فكم سمعنا أَنَّ ابن الشيخ الفلاني الذي كان عاملاً بمصلحة الري أو بالنقل الميكانيكي في السودان أو موظفاً بإحدى المصالح الحكومية ولم تكن له صلة بالعلم ولا بالتدين أصبح خليفة لأبيه وحل محل الشيخ الكبير بعد انتقاله إلى الدار الآخرة، بل ربما خُلِّفت امرأة هي بنت الشيخ أو أخته.

---

(١) مسروق بن الأجدع التابعي الجليل.

يقول مؤلف الطبقات رحمه الله عن الشيخ أَبي دِليق عم الشيخ بدوي عندما حضرته الوفاة وقالوا له: من الخليفة بعدك؟ قال: عايشة ابنتي(!!!) وكان له ولد ذكر اسمه حسين[١]!!!

وكذلك ذكر مؤلف الطبقات أَنَّ الشيخ أَبا القاسم الجنيد بن الشيخ علي النَّيِّل عندما أرادوا أن يخلفوه بعد أبيه وقد حضر المراسيم الشيخ عبد الرازق أبوقرون قال له الجنيد: (يا عمي أَنا ما قرأتُ العلم. قال له: أبشر بالخير سَكَنْتَ ومَكَنْتَ. فقام الشيخ الجنيد مقام أبيه الشيخ علي في السلوك وتربية المريدين وإرشادهم، وأعطي القبول التام عند الخاص والعام)[٢].

قلت: أي إرشاد وعلم ينال من شخص جاهل؟ ففاقد الشيء لا يعطيه.

إحياء لهذه البدعة السيئة استخلاف النساء على الرجال فقد خبرت أَنَّ الشيخ الطيب المشهور بـ «ود السايح» له خليفتان أخته ورجل آخر ما أدري هل هو من أقاربه أم من حوارييه، فعلى من سنها أولاً وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة، لا ينقص ذلك من أوزار من اتبعه شيئاً، كما أخبر الصادق المصدوق.

وعليه يرد سؤال:

هل يجوز لأحد أن ينتمي أو ينتسب إلى طريقة صوفية يأتمر بأمر شيخها وينتهي بنواهيه؟ وهذه هي حال الشيوخ: انحراف في العقيدة والتصور، وتمسك بأوراد بدعية، واعتماد على الخوارق التي ليس لها خطام ولا زمام؟ أو إلى أي جماعة أخرى يخالف منهجها ما كان عليه رسول الله ﷺ وصحبه الكرام في العقيدة والتصور والسلوك بأي اسم كانت؟

---

(١) انظر الترجمة رقم (١١) ص ٧١ ـ ٧٢.

(٢) الترجمة رقم (١٠) ص ٧٠ ـ ٧١.

والجواب أنه لا يجوز ولا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن ينتسب أو يدخل في تلك الفرق، وذلك للأسباب الآتية:

١ ـ **أن الصوفية**[١] أمر محدث لأنها ظهرت في نهاية القرن الثاني أو بداية القرن الثالث الهجري بمدينة البصرة، ولهذا لم يعرفها أهل القرون الفاضلة الثلاثة ولم يرد هذا اللفظ في كتاب ولا سُنة ولا أثر.

٢ ـ **أن الصوفية** منذ نشأتها الأولى وإلى الآن مرت بثلاث مراحل وخلفت ثلاثة أصناف هي:

(أ) صوفية الحقائق، حيث غلب على هذا الصنف الزهد وعدم الاشتغال بالدنيا والاجتهاد في العبادة مع إتيانهم ببعض صور الذكر المحدثة، ولهذا فهم كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله مجتهدون في طاعة الله فمنهم السابق ومنهم المقتصد[٢].

ويمثل هذا الصنف الأئمة عبد القادر الجيلاني والجنيد بن محمد والفضيل بن عياض رحمهم الله وغيرهم.

ومن الخطأ أن ينسب أمثال هؤلاء إلى الصوفية حيث إنهم كانوا أهل سُنة وكانوا متقيدين بالشرع، بالكتاب والسُّنة وإجماع الأمة. وما نسبة هؤلاء إلى الصوفية إلا كنسبة النووي والقرطبي وابن كثير وابن حجر إلى الأشاعرة[٣] في العقيدة، فهم على عقيدة أهل السُّنة في الجملة وما صدر منهم في هذا الجانب لا يقدح في كونهم من أهل السُّنة.

---

(١) ينسب الصوفي إلى لبس الصوف لأن المتصوفة الأوائل كانوا يلبسون الصوف لظنهم أنه علامة من علامات الزهد وليس للبس الصوف أدنى علاقة بالزهد، فالرسول ﷺ وهو إمام الزهاد لبس الصوف والقطن والكتان وغيرها، أما من يدعي ويزعم أن كلمة الصوفي نسبة إلى الصفاء أو أهل الصفة أو الصف الأول فكله غير صحيح واللغة لا تقره، انظر إن شئتَ مجموع فتاوي شيخ الإسلام ابن تيمية جـ ١١/ ٥ ـ ٢٤.

(٢) انظر المصدر السابق.

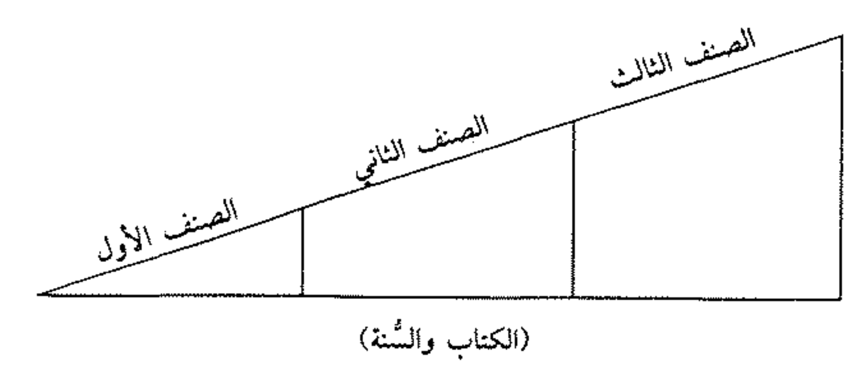
(٣) العقيدة الأشعرية من العقائد المحدثة وهي خليط بين السُّنة والكلام، وهي تنسب زوراً=

وكل ما ينسب إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني من خرافات ومخالفات وبدع فهو بريء منها.

(ب) صوفية الأرزاق، وهم الذين وقفت عليهم الوقوف وآثروا حياة العطالة والبطالة.

(جـ) صوفية الرسم، وهم المقتصرون على النسبة فقط.

فأنت ترى أن درجة انحراف الصوفية عن الكتاب والسُّنة بدأت كزاوية حادة ثم انفرجت، حيث أصبح التصوف زندقة وكفراً في عهد ابن عربي الطائي والحلاج وابن سبعين. حيث ادعى هؤلاء أن الولاية أفضل من النبوة ولَبَّسُوا على العوام والسذج بأن ولايته ﷺ أكبر من نبوته، ومما يكذب هذا الافتراء أن الولاية ما هي إلا ثمرة اتباع الرسول ﷺ.



(الكتاب والسُّنة)

يقول ابن عربي:

مقام النبوة في برزخ   فويق الرسول ودون الولي

وظهرت عقائد كفرية مثل عقيدة الحلول والاتحاد والفناء وغيرها من العقائد المنكرة التي أخذوها من الأمم الكافرة قبل الإسلام لأن

= وبهتاناً إلى الإمام أبي الحسن الأشعري رحمه الله فقد تخلى عنها وألف في ذلك كتباً أهمها كتاب الإبانة في أصول الديانة وضح فيه أن عقيدته هي ما يعتقده أحمد بن حنبل وغيره من أئمة السُّنة، ومن قبل تبرأ من الاعتزال وأعلن ذلك على الملأ. فالأشاعرة ليسوا من أهل السُّنة وإن كانوا أقرب الفرق إلى أهل السُّنة، ومع ذلك فلم يوافقوهم إلا في أمرين هما: الصحابة والنبوة.

الفكر الصوفي أخذ من الفكر الشيعي الذي أخذ بدوره من اليهودية.

ضبط الحلاج وقد كتب لرجل كتاباً بعنوان: (من الرحمن الرحيم إلى فلان) فوجه إلى بغداد وأحضر وعرض عليه الكتاب. فقال: هذا خطي وأنا كتبته. فقالوا له: كنت تدعي النبوة صرت تدعي الربوبية؟ قال: لا، ولكن هذا عين الجمع عندنا، هل الكاتب إلا أنا واليد فيه آلة؟ وكان هذا سبب قتله.

ويقول ابن الفارض موضحاً مذهبه وعقيدته وأنه اتحد مع الله، نعوذ بالله من الخذلان.

لها صلاتي بالمقام أقيمها — وأشهد فيها أنها لِيَ صلت

كلانا مصل واحد ساجد إلى — حقيقته بالجمع في كل سجدة

وما كان لي صلى سوائي ولم تكن — صلاتي لغيري في أداء كل ركعة

٣ ـ فالصوفية هي إذن مجموعة عقائد منافية للإسلام كعقيدة وحدة الوجود والاتحاد والفناء، وكاعتقادهم أن الشيخ يعلم الغيب وينفع ويضر وأنه تجوز الاستغاثة بالأموات والأحياء، واعتقادهم أن الرسول ﷺ خلق من نور وأنه يرى يقظة بعد انتقاله إلى الدار الآخرة وقبل يوم القيامة، ولهم أوراد وأذكار مبتدعة ألزموا بها الأتباع وشرعوها للمريدين.

وإليك الأدلة بجانب ما سبق عن الحلاج وابن عربي وابن الفارض:

يقول صاحب الطبقات عن المسلمي[١] الصغير أنه قال: (من يأتيني فرخة[٢] عند الزوال ينظر من فوق السموات إلى ما تحت الأرض السفلى بيعة من الرسول ﷺ فقام إليه الفقيه عبودي والفقيه عبد الله ود

(١) ترجمة رقم ٢١ ص ٨٤.

(٢) أي خادمة.

العجوز مشاركين في فرخة اشتغلوا في خلاصها[١] حتى فات الظهر أتوا بها فقال لهم: البيعة فاتتكم اللهم اجعلهم هادين مهديين).

ونقل عن الشيخ شرف الدين ولد بري أنه قال أحرمت خلف الشيخ اللعيسر[٢]، فرأيت العالم من العرش إلى الفرش، ورأيت جميع ما في عقول الناس فحصل لي انقباض من الناس، فلامني بعض الفقراء على ذلك فقلت لهم: حصل لي كذا وكذا. فقالوا: نحن طلبنا هذا ما وجدناه).

وقال في ترجمة الشيخ إدريس بن محمد الأرباب[٣] نقلاً عن الشعراني من طبقاته أنه قال: (كشف الأولياء على قسمين: منهم من ينظر في اللوح المحفوظ[٤] فإنه لا يتغير ولا يتبدل كسيدي علي الخواص ونحوه. ومنهم من ينظر في ألواح المحو والإثبات وعدتها ثلاثمائة وستون لوحاً فإنها تتغير وتتبدل. وإذا أخبر الولي بكلام ولم يقع فلا تنكر عليه بأن يقال كذاب بل يحمل على أنه نظر في ألواح المحو والإثبات)!!!.

نكتفي بذلك ونقول: هل هناك عقائد أفسد من ذلك؟!

٤ ـ لقائل أن يقول: رأيت كثيراً ممن دخل الصوفية وأخذ الطريق امتنع عن بعض المحرمات. ونحن نقول: لا شك في ذلك وما من شيء يخلو من فائدة حتى الخمر والميسر ولكن لعظم إثمهما حَرُما، فدرء المفاسد مقدر على جلب المنافع وما يناله المريد من فساد في العقيدة وانحراف في التصور إن لم يقع في الشرك الأكبر فهو أضعاف مضاعفة

---

(١) يعني سرقوها وأخذوها بالقوة.

(٢) ترجمة ١٢٥ ص ٢٢٩.

(٣) رقم (٦) ص ٦١.

(٤) كيف يكون محفوظاً وينظر إليه هؤلاء؟!.

على ما يستفيده. وأفضل للشخص ألف مرة أن يظل على معصية أو كبيرة إلى أن يلقى الله بها من أن يلقاه مشركاً يصرف شيئاً من العبادة لغير الله كالدعاء والذبح والنذر والاستغاثة ونحوها.

٥ ـ ليست هناك علاقة بين الزهد والتقلل من الدنيا والإكثار من العبادة والذكر وبين الصوفية، وذلك لأن الزهد والاجتهاد في العبادة من أساسيات الدين وقد كان ﷺ سيد العباد والزهاد وكذلك كان أصحابه ومن سار على نهجهم من بعدهم.

٦ ـ من الظلم أن ننسب مثل الزهد والاجتهاد في العبادة إلى الصوفية دون الإسلام فالصوفية إما أن تكون أفضل من الإسلام، أو مطابقة له، أو دونه، ولا أعتقد أن أحداً من المسلمين يقول إنها أفضل من الإسلام ولا هي مطابقة له، بل هي دونه، فعلام ننتسب إليها؟ وقد سمانا الله بالمسلمين والمؤمنين ولم يسمنا صوفية.

٧ ـ لقائل أن يقول: الصوفية أصبحت مصطلحاً ولا مشاحة في المصطلحات ونقول: صحيح أنه لا مشاحة في المصطلحات إن لم تكن مغايرة ومخالفة للشرع، أما إذا خالفته وباينته فهناك مشاحة كبيرة في ذلك كما هو الحال بالنسبة للصوفية.

والله أعلم.

عفواً لهذا الاستطراد الذي كان لا بد لنا من الإشارة إليه والتنبيه عليه لأنه سبب كل بلاء وسر كل فساد أصاب الأمة، شعر المتصوفة بذلك أم لم يشعروا، قصدوا لذلك أم لم يقصدوا.

يقول الشاطبي رحمه الله[١] مقرراً أن العلم لا يؤخذ إلا من أهله المحققين وأساتذته المتقنين الذين تربوا على المشايخ الأكفاء والعلماء الأتقياء الذين تلقوا العلم والسلوك والأدب سوياً: (فإذا تقرر هذا فلا

(١) الموافقات في أصول الشريعة جـ ١/ ٩٢ ـ ٩٩.

يؤخذ إلا ممن تحقق به، وهذا أيضاً واضح في نفسه، وهو أيضاً متفق بين العقلاء، إذ من شروطهم في العالم بأي علم اتفق، أن يكون عارفاً بأصوله وما ينبغي عليه ذلك العلم، قادراً على التعبير عن مقصوده فيه، عارفاً بما يلزم عنه، قائماً على دفع الشبه الواردة عليه فيه. فإذا نظرنا إلى ما اشترطوه، وعرضنا أئمة السلف الصالح في العلوم الشرعية وجدناهم قد اتصفوا بها على الكمال.

غير أنه لا يشترط السلامة عن الخطأ البتة[١]، لأن فروع كل علم إذا انتشرت، وانبنى بعضها على بعض اشتبهت، وربما تصور تفريعها على أصول مختلفة في العلم الواحد فأشكلت أو خفي فيها الرجوع إلى بعض الأصول فأهملها العالم من حيث خفيت عليه وهي في نفس غير ذلك، أو تعارضت وجوه الشبه، فتشابه الأمر، فيذهب على العالم الأرجح من وجوه الترجيح، وأشباه ذلك. فلا يقدح[٢] في كونه عالماً، ولا يضر في كونه إماماً مقتدى به، فإن قصر في استيفاء الشروط، نقص عن رتبة الكمال، بمقدار ذلك النقصان، فلا يستحق الرتبة الكمالية ما لم يكمل ما نقص).

ثم بعد ذلك بدأ يعدد أهم الشروط التي ينبغي أن تتوفر للعالم.

أهم الشروط التي ينبغي أن تتوفر في العالم الذي يتلقى عنه العلم والسلوك:

وهي ثلاثة ملخصها في الآتي[٣]:

أحدها: العمل بما علم حتى يكون قوله مطابقاً لفعله، فإن كان مخالفاً له فليس بأهل لأن يؤخذ عنه، ولا أن يقتدى به في العلم.

---

(١) ولهذا نهينا عن تقليد الرجال والتعصب لأقوالهم وقال سادتنا العلماء: كل يؤخذ من قوله ويترك إلا الرسول ﷺ. وقالوا: لكل عالم هفوة، وحذروا من اتباع الزلات.

(٢) هذا بالنسبة لعلماء أهل الإسلام ولا يدخل في ذلك أهل الأهواء.

(٣) المصدر السابق.

والثاني: أن يكون ممن رباه الشيوخ في ذلك العلم لأخذه عنهم، وملازمته لهم، فهو الجدير بأن يتصف بما اتصفوا به من ذلك، وهكذا كان شأن السلف الصالح.

فأول ذلك ملازمة الصحابة رضي الله عنهم لرسول الله ﷺ وأخذهم بأقواله وأفعاله، واعتمادهم على ما يرد منه كائناً ما كان وعلى أي وجه صدر، فهموا مغزى ما أراد أو لا، حتى علموا وتيقنوا أنه الحق الذي لا يعارض، والحكمة التي لا ينكسر قانونها، ولا يحرم النقص حول حمى كمالها. وإنما ذلك بكثرة الملازمة، وشدة المثابرة.

وتأمل قصة عمر بن الخطاب في صلح الحديبية[١] حيث قال: يا رسول الله، ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ قال: بلى. قال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: بلى. قال: ففيم نعطى الدنية في ديننا، ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم؟ قال: يا ابن الخطاب! إني رسول الله، ولم يضيعني الله أبداً - فانطلق عمر ولم يصبر، متغيظاً فأتى أبا بكر فقال له مثل ذلك. فقال أبو بكر: إنه رسول الله ولم يضيعه الله أبداً. قال فنزل القرآن على رسول الله ﷺ بالفتح، فأرسل إلى عمر فأقرأه إياه، فقال: يا رسول الله أوفتح هو؟ قال: نعم. فطابت نفسه ورجع.

فهذا من فوائد الملازمة والانقياد للعلماء والصبر عليهم في مواطن الإشكال حتى لاح البرهان إلى العيان وفيه قال سهل بن حنيف يوم صفين: «أيها الناس اتهموا رأيكم والله لقد رأيتني يوم أبي جندل ولو أني أستطيع أن آمر رسول الله ﷺ لرددته»[٢] وإنما قال ذلك لِما عرض لهم فيه من الإشكال، وإنما نزلت سورة الفتح بعد ما خالطهم الحزن والكآبة لشدة الإشكال عليهم والتباس الأمر، ولكنهم سلموا، وتركوا

---

(١) رواه البخاري وغيره.

(٢) خرجه البخاري.

رأيهم حتى نزل القرآن، فزال الإشكال والالتباس، وصار مثل ذلك أصلاً لمن بعدهم، فالتزم التابعون في الصحابة سيرتهم مع النبي ﷺ حتى فقهوا، ونالوا ذروة الكمال في العلوم الشرعية وحسبك من صحة هذه القاعدة أنك لا تجد عالماً اشتهر في الناس الأَخذ عنه إلاَّ وله قدوة اشتهر في قرنه بمثل ذلك. وقلما وُجدت فرقة زائغة، ولا أحد مخالف للسُّنة، إلاَّ وهو مخالف لهذا الوصف.

وبهذا الوجه وقع التشنيع[١] على ابن حزم وأنه لم يلازم الأخذ على الشيوخ ولا تأدب بآدابهم، وبضد ذلك كان العلماء الراسخون كالأئمة الأربعة وأشباههم.

والثالثة: الاقتداء بمن أخذ عنه والتأدب بأدبه، كما علمت من اقتداء الصحابة بالنبي ﷺ واقتداء التابعين بالصحابة، وهكذا في كل قرن. وبهذا الوصف امتاز مالك عن أضرابه أعني بشدة الاتصاف به، وإلاَّ فالجميع ممن يهتدى به في الدين كذلك كانوا، ولكن مالكاً اشتهر بالمبالغة في هذا المعنى، فلما ترك هذا الوصف رفعت البدع رؤوسها، لأن ترك الاقتداء دليل على أمر حدث عند التارك أصله اتباع الهوى.

حقاً لم تظهر البدع عند الخوارج والرافضة والمعتزلة إلا بسبب ترك ملازمة الأخيار والاقتداء بهم والأخذ عنهم.

فالخوارج عندما اعتزلوا الصحابة واغتروا باجتهادهم في العبادة وبما زينه لهم الشيطان من آراء فاسدة أصابهم الذي أصابهم.

---

(١) لقد شنع العلماء بابن حزم رحمه الله على الرغم من جلالة قدره في العلم ورسوخ قدمه ومناصرته للسُّنة والذب عنها بسبب تجريحه لبعض الأئمة الأعلام وبإنكاره للقياس وبإباحته للملاهي التي فتن بها السذج والمغفلون من بعده، وكل هذا مرده إلى عدم ملازمته للعلماء والتأدب بأدبهم، والله نسأل أن يتجاوز عنه وأن يهب تلك المآخذ لمآثره الكبيرة.

وكذلك الرافضة خذلهم الله حتى خالفوا أمر الإمام علي فدارت بهم الدائرة.

وأيضاً واصل بن عطاء عندما خالف شيخه الإمام الرضا الحسن البصري ونابذه وخالف جماعة المسلمين بذر تلك البدعة الشيطانية أعني بدعة الاعتزال التي فرقت الأمة وامتحنت الأئمة ولا يزال أهل الأهواء يقتدون بها في ضلالهم إلى يوم الدين.

مخاطر أخذ العلم من الكتب بغير شيخ ومن قبل أن يحوز المرء مفاتح العلم:

هناك طريقتان لأخذ العلم هما:

١ ـ المشافهة والسماع من الشيخ.

٢ ـ مطالعة الكتب المصنفة في العلوم.

والطريقة الأولى هي الطريقة المأمونة العواقب السليمة النتائج، أما الطريقة الثانية وهي الأخذ من الكتب مباشرة خاصة لمن لم يحز على مفاتح العلم من الشيوخ الأكفاء فمخاطرها عظيمة وعاقبتها وخيمة.

أما من أخذ مفاتح العلم من الشيوخ واقتصر على مصنفات أئمة أهل العلم المقتدى بهم كالأئمة الأربعة وغيرهم من علماء الإسلام، ولم يتناول غيرها من مصنفات أهل الأهواء فلا تثريب عليه إن لم يجد حيلة لملازمة أهل العلم.

إن لم يكن إلا الأسنة مركباً ... فما حيلة المضطر إلا ركوبها

كل الانحرافات التي حدثت في الإسلام مردها في الغالب إلى عدم تلقي العلوم من الشيوخ الأكفاء وعدم ملازمتهم، والاكتفاء بالمطالعة في المصنفات من غير تمييز للغث من السمين والنافع من الضار، والاعتماد على ما يؤديه إليه فهمه ويستحسنه عقله خاصة لمن

ساد قومه وكان سليط اللسان، ضعيف الإيمان ذا جرأة وافتنان في تضليل الناس والتلبيس عليهم.

ولو أجلنا النظر في عصرنا هذا الحاضر لوضح لنا خطورة هذا المسلك أكثر من ذي قبل على الإسلام والمسلمين، إذ كل دعاة التحرر من القديم من العصريين والعلمانيين المتزينين بالإسلام من هذا الصنف نحو سيد أحمد خان أبو العلمانية في العالم الإسلامي، محمد عبده، الترابي، وعلى هذا قس.

إذا كان الاعتماد على النظر إلى الكتاب وحده لم يسعف أمثال عروة بن الزبير وهو هو عندما فهم من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ﴾ أن السعي بين الصفا والمروة ليس واجباً في الحج والعمرة، ولكن سرعان ما صوبته العالمة الربانية عائشة، فقالت له في الحال: بئس ما فهمت يا ابن أختي لو كان المراد كما فهمت لقال: «فلا جناح عليه ألاَّ يطوَّف بهما».

فعروة هذا ما كان له أن يرجع عن هذا الفهم لولا أن صوبته عائشة في الحال، فكيف بمن هو دون عروة فهماً ولغة وفقهاً وأدباً؟!

يقول الشاطبي رحمه الله: (وإذا ثبت أنه لا بد من أخذ العلم عن أهله فلذلك طريقان:

أحدهما: المشافهة وهي أنفع الطريقتين وأسلمهما لوجهين:

الأول: خاصية جعلها الله تعالى بين المعلم والمتعلم، يشهدها كل من زاول العلم والعلماء، فكم من مسألة يقرأها المتعلم في كتاب ويحفظها ويرددها على قلبه فلا يفهمها، فإذا ألقاها إليه المعلم فهمها بغتة، وحصل له العلم بها بالحضرة. وهذا الفهم يحصل إما بأمر عادي من قرائن الأحوال، وإيضاح موضع إشكال لم يخطر للمتعلم ببال، وقد يحصل بأمر غير معتاد، ولكن بأمر يهبه الله للمتعلم عند مثوله بين يدي

المعلم ظاهر الفقر بادي الحاجة إلى ما يلقى إليه. وهذا ليس ينكر. فقد نبه عليه الحديث الذي جاء: «أن الصحابة أنكروا أنفسهم عندما مات رسول الله ﷺ» وحديث حنظلة الأسدي عندما شكا إلى رسول الله ﷺ أنهم إذا كانوا عنده وفي مجلسه كانوا على حالة يرضونها فإذا فارقوا مجلسه زال ذلك عنهم. فقال رسول الله ﷺ: «لو أنكم تكونون كما تكونون عندي لأظلتكم الملائكة بأجنحتها»[1] وقد قال عمر بن الخطاب: «وافقت ربي في ثلاث» وهي من فوائد مجالسة العلماء، إذ يفتح للمتعلم بين أيديهم ما لا يفتح له دونهم، ويبقى ذلك النور لهم بمقدار ما بقوا في متابعة معلمهم، وتأدبهم معه، واقتدائهم به. فهذا الطريق نافع على كل تقدير.

وقد كان المتقدمون لا يكتب منهم إلا القليل، وكانوا يكرهون ذلك، وقد كرهه مالك، فقيل له: فما نصنع؟ قال: تحفظون وتفهمون حتى تستنير قلوبكم، ثم لا تحتاجون إلى الكتابة. وحكي عن عمر بن الخطاب كراهية الكتابة. وإنما ترخص الناس في ذلك عندما حدث النسيان وخيف على الشريعة من الاندراس.

وثانيهما: مطالعة كتب المصنفين ومدوني الدواوين وهو أيضاً نافع في بابه بشرطين:

الأول: أن يحصل له من فهم مقاصد ذلك العلم المطلوب، ومعرفة اصطلاحات أهله، ما يتم له به النظر في الكتب، وذلك يحصل بالطريق الأول من مشافهة العلماء، أو مما هو راجح إليه، وهو معنى قول من قال «كان العلم في صدور الرجال، ثم انتقل إلى الكتب، ومفاتحه بأيدي الرجال» والكتب وحدها لا تفيد الطالب منها شيئاً دون فتح العلماء، وهو مشاهد.

---

(١) أخرجه مسلم والترمذي.

الشرط الثاني: أن يتحرى كتب المتقدمين من أهل العلم المراد، فإنهم أقعد به من غيرهم من المتأخرين. وأصل ذلك التجربة والخبر)[١].

ورحم الله من قال:

يظن الغمر أن الكتب تهدي   أخا جهل لإدراك العلوم

(١) الموافقات جـ ١/ ٩٧ ـ ٩٨.

الوقفة السادسة

ادعاء معرفة الغيب:

ما من شيخ من الشيوخ الذين ترجم لهم صاحب الطبقات «ود ضيف الله» إلا ويدعي الاطلاع على الغيب أو ينسبه إلى غيره من المشايخ والمريدين، فمنهم من يزعم أنه ينظر في اللوح المحفوظ، ومنهم من ينظر في ألواح المحو والإثبات ويحددونها بأنها ثلاثمائة وستون لوحاً، ومنهم من ينظر من العرش إلى الفرش، ومنهم من يعلم ما في صدور العالمين، ومنهم من يعلم ما يدخره الناس في بيوتهم وما يأكلون ونحو ذلك من الأمور الغيبية التي لا يعلمها حتى الرسل. فليس هناك رسول قال إنه يعلم ما في اللوح المحفوظ ولا أنه ينظر في ألواح المحو والإثبات ولكنه يعلم ما علمه له ربه وما أوحاه إليه، قال تعالى على لسان رسوله محمد ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾[1] وقال عز من قائل: ﴿قُلۡ إِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٞ مَّا تُوعَدُونَ أَمۡ يَجۡعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ﴿٢٧﴾ لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا ﴿٢٨﴾﴾[2] وقال: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾[3].

---

(١) الأعراف: ١٨٨. (٢) الجن: ٢٥ ـ ٢٨. (٣) النمل: ٦٥.

والغيب غيبان:

١ - غيب مطلق لم يقع بعد وهذا لا يعلمه إلا الله.

٢ - وغيب وقع وحدث وهذا يعلمه بعض الخلق ويجهله آخرون.

والثاني هو الذي يدعي بعض المشعوذين وأولياء الشياطين معرفته، مثلاً بأن يسرق من أحدهم مال فيذهب إلى بعض الشيوخ أو السحرة فيخبره بالسارق أو بمكان المال وهذا يتم عن طريق معاونة الشياطين بعضهم لبعض، فشيطان السارق وقرينه يخبر قرين الشيخ أو الساحر وهذا لا يدل على معرفة الغيب وليس هو مؤشر لصلاح وتقوى وإلهام، بل على العكس والنقيض من ذلك.

وإذا كان الرسل عليهم الصلاة والسلام وهم سادة الخلق وأحب الخلق إلى الله ما كانوا يدرون بأمور وقعت وكانوا في أشد الحاجة وأمسها لمعرفتها.

مثال ذلك يعقوب عليه السلام ما كان يدري ماذا حدث ليوسف عليه السلام ولا أين هو؟ ولا هل هو حي أم ميت؟ وهو قريب منه فيعقوب كان ببداية الشام ويوسف في مصر، فلما جاءه البشير وألقى قميصه أمامه رد إليه بصره وقد بكى يعقوب لفراق يوسف حتى ابيضت عيناه وحزن على ذلك حزناً شديداً وهو الكريم ابن الكريم ابن الخليل عليهم السلام.

وسليمان عليه السلام ما كان يدري مكان بلقيس حتى أخبره طائر وهو الهدهد، وقد سُخر له من المخلوقات وأوتي من الملك ما لم يؤت أحد من العالمين.

ومحمد ﷺ ما كان يعلم براءة عائشة رضي الله عنها حتى نزلت براءتها من السماء وبرئت من فوق سبع سموات.

وكذلك ما كان يعلم صدق كعب وصاحبيه حتى نزلت توبتهم بعد خمسين ليلة.

وعندما أراد اليهود بالمدينة لعنهم الله امتحان الرسول ﷺ وسألوه عن ثلاثة أشياء: أصحاب الكهف والرقيم، وذي القرنين، والروح، لم يستطع أن يجيبهم حتى نزل عليه جبريل بخبر ذلك من الله عز وجل، وكان ﷺ وهو سيد الخلق كثيراً ما يتوقف في بعض المسائل ويجيب بقول لا أدري، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أي البقاع خير؟ قال: «لا أدري» قال: أي البقاع شر؟ فقال: «لا أدري» فقال[1]: سل ربك. فأتاه جبريل عليه السلام فقال: «يا جبريل أي البقاع خير؟» قال: «لا أدري» فقال: «أي البقاع شر؟» فقال: «لا أدري» فقال: «سل ربك» فانتفض جبريل انتفاضة كاد يصعق منها محمد ﷺ فقال: ما أسأله عن شيء. فقال الله عز وجل لجبريل: «سألك محمد أي البقاع خير؟ فقلت: لا أدري، وسألك أي البقاع شر؟ فقلت: لا أدري. فأخبره أن خير البقاع المساجد، وأن شر البقاع الأسواق»[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما أدري أعزير نبي أم لا؟ وما أدري أتبع ملعون أم لا؟»[3].

وفي رواية له: «ما أدري أتبع لعن أم لا؟ وما أدري ذو القرنين نبي أم لا، وما أدري الحدود كفارات لأهلها أم لا»[4].

وإذا كان الرسول ﷺ يعلم الغيب هل كان سيخرج إلى أُحد وهو يعلم أنه سيقتل أربعة وسبعون من خيرة أصحابه؟

وإذا كان يعلم الغيب هل كان سيرسل القراء مع أولئك النفر الذين

---

(١) أي الرجل.

(٢) قال محقق جامع بيان العلم وفضله جـ ٢/ ٨٢٦: صحيح الإسناد أخرجه ابن حبان في صحيحه رقم (١٥٩٩) والبيهقي في سننه ٣/ ٦٥.

(٣) إسناده حسن ـ المصدر السابق ص ٨٢٨.

(٤) صحيح، أخرجه أبو داود رقم (١٤٦٧٤) والحاكم في المستدرك جـ ١/ ٣٦ ـ المصدر السابق.

قتلوهم وغدروا بهم؟ وهل كان سيرسل يسار الراعي رضي الله عنه مع ذود من الإبل وهو يعلم أنهم سيقتلونه ويأخذون الإبل؟!

ولو كان عمر يعلم الغيب هل كان يترك ذلك العلج يقتله ويقتل معه تسعة من المسلمين؟

ولو كان علي يعلم الغيب هل كان سيخرج لصلاة صبح ذلك اليوم الذي قتله فيه ابن ملجم قبحه الله؟

ولو كان الحسين يعلم الغيب أنه سيقتل هل كان سيستجيب إلى أقوال الرافضة المخذولين ويخرج إلى العراق ومعه كل أهل بيته؟

هل الذين يدعون علم الغيب ومعرفة المغيبات وينظرون في اللوح المحفوظ ممن ورد ذكرهم في الطبقات وغيرهم أفضل من هؤلاء؟ أم أكمل ولاية منهم؟ اللهم لا وألف لا.

هل حدوث الخوارق وحدها على يد شخص ما دليل على صلاحه ويلزم منه أن يصدق في كل ما يقول ويزعم أنه يحدث له؟ لو كان الأمر هكذا لكان المسيح الدجال أكرم الخلق على الله حيث سيجري الله على يديه خوارق لا طاقة لأحد بها استدراجاً له ولمن يتبعه من شرار الخلق فهو يأمر السماء أن تمطر فتمطر في الحال ويأمر الأرض أن تخرج ثمارها وكنوزها فتخرجها في الحال، ويأمر الشجرة أن تأتيه فتأتي حالاً ويأمرها أن ترجع إلى مكانها فترجع، ومن اتبعه من الأوباش يعيشون في نعيم وسعة ورغد من العيش ومن كفر به يُضيق عليهم، بل يحيي ويميت، بل يقتل ذلك المؤمن الصادق الذي يواجهه بالإنكار وبأنه هو المسيح الدجال الذي حذر منه رسول الله ﷺ وبعد أن يقتله ويحييه مرتين يقول له: والله أنا الآن أشد بصيرة فيك من ذي قبل فيريد أن يقتله الثالثة فلا يمكن من ذلك؛ والمسيح الدجال أبغض الخلق إلى الله لأنه يدعي الربوبية ويقول أنا ربكم. وقد حذرنا رسولنا محمد ﷺ من شره وأرشدنا إلى أوصافه التي يعرف بها فاعتبروا يا أولي الأبصار وانتبهوا من هذه الغفلة، وتحرروا من هذه الخرافات، ونزهوا عقولكم من هذه

السخافات والضلالات التي لا تناسب بحال من الأحوال أتباع سيد الخلق وخاتم الرسل محمد بن عبد الله ﷺ.

نماذج لمن ذكر صاحب الطبقات أنهم نطقوا بالغيب:

إليك أخي الحبيب بعض ما جاء في الطبقات عن النطق بالغيب منذ الصغر وعن النظر في اللوح المحفوظ وألواح المحو والإثبات وعمن ينظر من العرش إلى الفرش:

يقول عن القدال بن إبراهيم بن عبودي[1]: (وكان من صغره ينطق بالغيب).

وقال عن حمد النحلان بن الترابي[2]: (أنا سيدي رفع لي الطبق وأوراني التحته سافراكم إلى بلدنا المضوي يضوي في بلده. فقدم البلد قال: هذا مكان خلوتي، وهذا مكان قبري. وتكلم بالغيبيات وبما يكون في العالم وما سيكون).

قال ذلك وهو بمكة وقد ذهب إليها للحج فادعى المهدية هناك كما يقول صاحب الطبقات وقال: (أنا المهدي. فضربوه وحيرانه. قالت الحاجة[3]: ساقونا حبسونا ثم طلقونا... فأرسل ميرف حواره وقال له: امشي في سنار قول المهدي نزل فأمر الملك بادي أبو دقن بقتله وجره).

قلت: الشيخ حمد بن الترابي وحفيده حسن كلاهما يعلم أن السودان بلد ضعيف الثقافة الدينية فقير في العلم الشرعي ولهذا أراد كل منهما أن ينشر بدعته فيه، ولكن ما جاء به الحفيد حسن فاق ما جاء به الجد فدعوى الجد أنه المهدي المنتظر لا تداني دعوة الحفيد لتطوير الدين وتمييعه ليواكب العصر.

---

(١) الترجمة رقم (٢) ص ٨١.

(٢) ترجمة رقم (٧٩) ص ١٦٤ ـ ١٦٥.

(٣) زوجه.

ومن العجيب الغريب أن يقابل ادعاء حمد المهدية بالرفض والحسم بأن يقتل من جاء مبشراً به في الحال مع ما كان عليه السودان من قلة العلم وتفشي الجهل بينما تقابل دعوى الحفيد حسن بالقبول والتبجيل وأن يلقب بالشيخ المجدد بدلاً من الرفض والإنكار والهجر خاصة وأن الحالة العلمية في السودان أحسن حالاً الآن منها في عهد «السلطنة الزرقا» أم أن الحفيد الآن هو الخصم والحكم وهو الآمر الناهي يا ترى؟!

ونقل مؤلف الطبقات في ترجمة الشيخ إدريس محمد الأرباب[١] عن الشعراني أنه قال في طبقاته: (كشف الأولياء على قسمين: منهم من ينظر في اللوح المحفوظ فإنه لا يتغير ولا يتبدل كسيدي علي الخواص ونحوه. ومنهم من ينظر في ألواح المحو والإثبات وعدتها ثلاثمائة وستون لوحاً فإنها تتغير وتتبدل، وإذا أخبر الولي بكلام لم يقع فلا تنكر عليه بأن يقال كذب، بل يحمل على أنه نظر في ألواح المحو والإثبات).

يستدل صاحب الطبقات بهذا النقل من الشعراني ليبرر الدعاوي الكثيرة التي ادعاها من ترجم لهم من علمهم بالغيبيات وإخبارهم بذلك ونظرهم في اللوح المحفوظ وكأن ما قاله الشعراني قرآنًا أو سُنَّة، وقد قال الشعراني ما هو أنكر من ذلك حيث عد أن يقول الولي للشيء كن فيكون بأنها أقل مراتب الولاية، فهل بعد هذا يلام الشعراني؟

ثم ذكر بعد ذلك من إخبار الشيخ إدريس بالغيبيات الكثير نذكر منها نماذج فقط: (..ومنها أنه أخبر الحاج سعيد قال له: الرسول ﷺ يقول لك: ابن لدفع الله[٢] مسجداً. وقال له: أنا كافر ما بجيني.

---

(١) ترجمة رقم (٦) ص ٦١ ـ ٦٥.

(٢) ابن الشيخ محمد أبو إدريس العركي.

وحلف بالطلاق أَنه إنْ ما رأى الرسول وأَمره بذلك لا يبنيه. فرأى الرسول ﷺ وأمره ببناء هذا الجامع فبناه حينئذ. ومنها إخباره للشيخ صغيرون حين أتى بولده الشيخ الزين لزيارته له. فقال له: الزين أطول منك عمراً وأكثر تدريساً فكان كما قال. ومدة إقامة الشيخ صغيرون في دار الأبواب[١] خمسة عشر سنة وخلافة الزين خمسين سنة... ومنها إخباره للشيخ دفع الله حين سأله عن ملك الفنج. فقال له: أيكون للفنج[٢] بعد رباط ملك؟ فقال: آخرهم ملك أول اسمه باء طالعة[٣] أول ملكه عدل وآخره ظلم).

ثم قال: (ومن أخباره ما وقع وما هو منتظر الوقوع).

وقال عن المسلمي الصغير[٤] أنه قال: (من يأتيني بفرخة عند الزوال ينظر من فوق السماوات السبع إلى ما تحت الأرض السفلى بيعة من رسول الله ﷺ).

وحكى عن عبد الرزاق ولد عووضة[٥] أنه صلى خلف شرف الدين ابن عبد الله العركي بن الشيخ علي بَرّي، فقال: (فلما أحرمتُ خلفه رأيتُ العَالَم من العرش إلى الفرش، ورأيتُ جميع ما في عقول الناس).

وقال عن الشيخ بأن النقا ولد الشيخ عبد الرازق[٦] أنه مرض مرضاً شديداً فعاده بعض إخوانه وقالوا له: أَنت مرضان ما عندك ولد ذكر

---

(١) المنطقة من شندي إلى شمال الخرطوم.

(٢) ترسم في الطبقات أحياناً بواو وأحياناً بدون واو.

(٣) قال محقق الطبقات لعل المقصود بادي الأول.

(٤) الترجمة رقم (٢١) ص ٨٤.

(٥) انظر الترجمة رقم (١٢٦) ص ٢٢٩.

(٦) الترجمة رقم (٤٧) ص ١١٤.

ولادتك كلها بنات. فقال لهم: زوجتي بنت صالح حامل بتجيب ولداً ما بموت حتى يبقى طول السيف فكان الأمر كما قال).

وقال عن الشيخ إدريس بن محمد الأرباب[١]: (فمن ذلك أيقنوا أنّ علمه يغترفه من اللوح المحفوظ).

(١) الترجمة رقم (٦) ص ٥٥.

الوقفة السابعة

دعوى الاجتماع بالخضر عليه السلام والأخذ منه وقد مات:

يدعي الصوفية خلافاً لأهل السُّنة والجماعة أن الخضر الذي اجتمع به موسى عليه السلام ولي من أولياء الله، وأنه لم يذق طعم الموت إلى قيام الساعة وأنهم يلتقون به ويأخذون عنه العلم اللدني، علم الباطن وغيره، وأنه يظهر للناس في حالة رثة وفي صورة سائل ويكثر تردده على القمائم والمزابل ونحو ذلك من الأقوال التي لا تقوم على دليل سوى الهواتف والرؤى المنامية والخيالات الشيطانية.

وقد حكى صاحب الطبقات عن كثير ممن ترجم لهم من مشايخ الصوفية أنهم التقوا بالخضر وأخذوا عنه.

ومن أمثلة ذلك ما ذكره صاحب الطبقات عمن اجتمع بالخضر، بزعمهم:

قال عن الشيخ سعد «ولد» شوشلي[1]: (وكان ممن يجتمع بالخضر عليه السلام، وشاوره[2] فيمن يخلفه بعده فقال[3]: سألتُ الخضر وقال: الخليفة بعدك الزين).

---

(١) انظر الترجمة رقم (١٤) ص ٧٤.

(٢) أي الشيخ صغيرون لأنه تردد فيمن يخلفه لأن ابنه الزين كان صغيراً.

(٣) القائل سعد ولد شوشلي المغربي.

وقال عن حمد النحلان بن الترابي[١]: (واجتمع بالسيد الخضر وأخذ عليه).

وقال عن بان النقا «ولد» الشيخ عبد الرازق[٢]: (فلما كبرت أخذت الطريقة من صالح والأوراد من عمي الزين. وأنا مددي كله من أبوي، ووسيلتي عند الرسول والخضر. ذات يوم رأيت نفسي جالساً عند قبر أبي على اليسار والخضر عليه السلام على يمين القبر).

اعلم أخي المسلم أن الخضر نبي وليس هو بولي ولا مَلَك وذلك لقوله عز وجل على لسانه في نهاية قصته مع موسى عليه السلام: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِىۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾[٣].

قال الإمام القرطبي رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِىۚ﴾ الآية: (يقتضي أن الخضر نبي)[٤].

وممن رجح نبوته بجانب القرطبي: الحافظ ابن كثير، والحافظ ابن حجر، والثعلبي، وشيخ الإسلام ابن تيمية، والإمام العيني، وأبو حيان الأندلسي وقال: (الجمهور على أنه نبي)، وابن الجوزي وغيرهم كثير.

قال الحافظ ابن حجر: (وكان بعض الأكابر يقول: أول عقدة تحل من الزندقة اعتقاد أن الخضر نبي، لأن الزنادقة يتذرعون بكونه غير نبي إلى أن الولي أفضل من النبي)[٥].

ومن أقوى الأدلة على نبوته بجانب الآية السابقة أنه لو لم يكن

(١) الترجمة رقم (٧٩) ص ١٦١.

(٢) الترجمة رقم (٤٧) ص ١١٥.

(٣) الكهف: ٨٢.

(٤) الجامع لأحكام القرآن جـ ١١/ ٣٩.

(٥) رسالة الزهر النضر في نبأ الخضر لابن حجر ص ٢٦ ـ ٢٧.

نبياً لما أمر الله كليمه موسى بالذهاب إليه، ولو لم يكن نبياً لكان ذلك متكئاً لادعاء علم الغيب أو ما يسمونه بالعلم اللدني أو علم الباطن، وفي ذلك ضرر بليغ وفساد عظيم على عقائد الأمة، كما هو حادث الآن لتشبث الصوفية بذلك ومخالفتهم لقول جمهور الأمة.

كذلك مما يجدر التنبيه إليه والتأكيد عليه أن الخضر مات، والأدلة على ذلك من القرآن: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ﴾[1] وقوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[2] وقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾[3].

ولو كتب الخلود لأحد لكان أولى الناس به محمد ﷺ.

قال الحافظ ابن كثير: (أما الذين ذهبوا إلى أنه قد مات فمنهم: البخاري صاحب الصحيح وإبراهيم الحربي[4] وأبو الحسين بن المنادي[5] والشيخ أبو الفرج بن الجوزي)[6].

وقال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي مدللاً لوفاة الخضر: (الأول ظاهر عموم قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ﴾ قوله: ﴿لِبَشَرٍ﴾ نكرة في سياق النفي، فهي تعم كل بشر فيلزم من ذلك نفي الخلد عن كل بشر من قبله، والخضر بشر من قبله، فلو كان شرب من عين الحياة[7] وصار حياً خالداً إلى يوم القيامة لكان الله قد جعل لذلك البشر الذي هو الخضر من قبله الخلد)[8].

---

(١) الأنبياء: ٣٤.
(٢) الزمر: ٣٠.
(٣) آل عمران: ١٨٥.
(٤) المتوفى ٢٨٥هـ وهو تلميذ الإمام أحمد.
(٥) المتوفى ٣٣٤هـ.
(٦) البداية والنهاية للحافظ ابن كثير ج ١/ ٣٣٤.
(٧) كما يقول الصوفية.
(٨) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشيخ محمد الأمين الشنقيطي ج ٤/ ١٦٤.

أما القائلون بحياته وهم الصوفية فقد استدلوا بأدلة واهية هي:

١ ـ أَنّه دَفَنَ جسد آدم عليه السلام بعد طوفان نوح، فأصابته دعوة آدم لمن يستر جسده!!!

٢ ـ أَنّه شَرِب من عين الحياة ولهذا فهو سيعيش إلى قيام الساعة!!! ولم يدر أحد غيره عن عين الحياة شيئاً.

٣ ـ بعد وفاة النبي ﷺ سمعوا هاتفاً جاء معزياً للصحابة في وفاته!!!

وقد كَذَّبَ العلماء المحققون كل تلك الأخبار[1].

والعجب كل العجب من دعواهم أنه جاء ليعزي الصحابة في وفاة النبي ﷺ، وهل كان الصحابة يحتاجون إلى تعزية بعد خطبة أبي بكر الصديق رضي الله عنه؟ ولماذا لم يحضر لمبايعته وللجهاد معه وقد نزلت الملائكة للجهاد معه؟ ثم أين هو الآن؟ لماذا لم يقل أحد من الصحابة أو التابعين أو العلماء المعتبرين أنه رأى الخضر واجتمع به وأخذ منه؟ لماذا كان هذا حجراً على المتخلفين عن منهج رسول الله ﷺ؟

(١) انظر رسالة الخضر للأمين الحاج محمد ص ٣١ ـ ٤٩.

الوقفة الثامنة

بطلان تقسيم العلم إلى علم شريعة وعلم حقيقة:

من العقائد الفاسدة والتصورات الباطلة عند الصوفية دعواهم أن العلم ينقسم إلى قسمين علم حقيقة وعلم شريعة، أو علم باطن وعلم ظاهر، وأن علماء الأمة وفقهاءها من لدن الصحابة ومن بعدهم إلى قيام الساعة هم علماء الظاهر والقشور، علماء الشريعة، أما هم فأهل الحقيقة والباطن.

ويستدلون على هذا القول الباطل بقصة موسى مع الخضر عليهما السلام، ويعتقدون أن الخضر أعلم من موسى وأفضل منه لأن الولي في اعتقادهم أفضل من النبي، كما يقول ابن عربي الطائي:

مقام النبوة في برزخ فويق الرسول ودون الولي

لأنه كان يعلم علم الباطن، علم الحقيقة، العلم اللدني، أما موسى فعلمه علم ظاهر وشريعة ورسوم، وما علم هؤلاء أن موسى عليه الصلاة والسلام رسول مُكَلَّم من أولي العزم وأن رسالته حوت عدداً من أنبياء بني إسرائيل، والسبب الذي من أجله أُمر موسى أن يرحل إلى الخضر ليس هو أن الخضر أعلم منه ولا أفضل منه، ولكن موسى كان خطيباً مفوهاً فخطب ذات يوم وسأله أحد بني إسرائيل: هل هناك من هو أعلم منك؟ فلم يَرُد العلم إلى الله. ولهذا أمره الله عز وجل بأن يرحل إلى من هو دونه في الرتبة والعلم ليتبين له أن فوق كل ذي علم

عليم، هذا بعد أن أوحى الله إلى الخضر بالحكمة وبيَّن له العلة في خرق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الحائط، ولم يوح بذلك إلى موسى. ومع ذلك فما قاله موسى هو الحق الذي ينبغي على كل مسلم أن يعتقده ويصنعه ما لم يعلم العلة والسبب كما علَّم الله الخضر.

لم يكتف الصوفية بهذا التقسيم الباطل، بل زادوا على ذلك بأن افتروا سنداً لهذا العلم الموهوم أوصلوه إلى الرسول ﷺ وإلى جبريل عليه السلام.

يقول صاحب الطبقات في ترجمة الشيخ حسن ود حسونة[1]: (وكيفية سند ولد القدّال: أخذ عن الكوفي، والكوفي عن الشيخ حسن عن رسول الله ﷺ) هذا بعد أن قال عن الشيخ حسن ود حسونة: (ومدده عن الرسول ﷺ).

وقد ساق سند العلم اللدني الشيخ عبد الباقي المكاشفي في قصيدته: «جل جلاله لا لو شريك ولا لو مثال الله»، حيث يقول فيها:

من جبريل فهو روح الله

أوحى لِي مختار الله

إلى علي أسد الله

إلى الحسين الهام في الله...

إلى أن وصل إلى تاج الدين البهاري حيث قال:

بهاري بهر بنور الكون

من الله محروس بالصون

أُتى الحرف الكاف والنون..

---

(١) الترجمة رقم (٦٦) ص ١٤٧.

وهكذا إلى أن وصل بالسند إلى شخصه، ومما يؤسف له أن هذه القصيدة تُغنى في الإذاعة والتلفزيون السودانيين ويتحصن بها البعض صباحاً ومساءً.

نماذج لما ذكره صاحب الطبقات من ذلك:

قال صاحب الطبقات عن الشيخ إدريس بن محمد الأرباب[١]: (ثم نزل عليه الفيض الإلهي، والعلم الرباني، فتكلم في علوم الأولين والآخرين والأمم الماضية من غير أَنْ ينظر ذلك في كتاب).

وقال إن الشيخ أبا القاسم الجنيد بن الشيخ علي النَّيل[٢] وصى زين العابدين حفيد الشيخ دفع الله العركي قائلاً: (يا زين العابدين إذا جالست القوم أمسك خاطرك لا تحاكي الفقهاء فإن قلوبهم محجوبة عن الله تعالى).

قلت: كيف تكون قلوب علماء الشريعة وفقهاء الإسلام محجوبة عن الله تعالى وهم سرج الإسلام ومصابيح الظلام العالمين بالحلال والحرام؟ بل هم ورثة الأنبياء والرسل، إذ الرسل والأنبياء لم يورثوا سوى العلم الشرعي، بل هم سادة الأولياء، فإذا لم يكن العلماء والفقهاء في كل وقت وحين هم الأولياء فليس لله ولي كما قال الإمامان الكبيران والوليان الكاملان أبو حنيفة والشافعي كما نقل ابن الحاج المالكي عنهما في كتابه المدخل.

وقال عن الشيخ نَنَّة بن الترابي أخي الشيخ حمد النحلان: (طرق الطريق على الشيخ دفع الله وصار من أهل الحقيقة)[٣].

---

(١) الترجمة رقم (٦٧) ص ٥١.
(٢) الترجمة رقم (١٠) ص ٧١.
(٣) الترجمة رقم (٢٥٨) ص ٣٦٥.

ما يستدل به هؤلاء وضحد أهل العلم له:

يستدل المتصوفة على هذا التقسيم، بجانب قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾(١) بالآتي:

ما روي عن الحسن يرفعه إلى النبي ﷺ: «ما نزل من القرآن آية إلا لها ظهر وبطن»(٢).

ويروى هذا عن الأحوص عن عبد الله عن رسول الله ﷺ: «أنزل القرآن على سبعة أحرف، لكل آية منها ظهر وبطن»(٣) ويعني بعض السلف بعلم الباطن عندما يرد في بعض كلامهم العلمَ بالاعتقادات الصحيحة والفاسدة والعلم بمعرفة الله ومحبته وخشيته والتوكل عليه ورجاءه والحب فيه والبغض فيه والرضا بحكمه وهكذا، ولا يعنون ما يرمي إليه هؤلاء.

قال البغوي في شرح السُّنة معلقاً على ذلك الأثر: («لكل آية منها ظهر وبطن» اختلفوا في تأويله، فيروى عن الحسن أنه سئل عن ذلك فقال: إن العرب تقول: قلبت أمري ظهراً لبطن، وقيل الظهر: ما حدِّث فيه عن أقوام أنهم عصوا، فعوقبوا وأهلكوا بمعاصيهم، فهو في الظاهر خبر، وباطنه عظة وتحذير أن يفعل أحد مثل ما فعلوا، فيحل به ما حل بهم. وقيل ظاهره: تنزيله الذي يجب الإيمان به، وباطنه وجوب العمل به، وما من آية إلا وتوجب الأمرين جميعاً، لأن وجوه القرآن أمر ونهي ووعد ووعيد، ومواعظ وأمثال وخبر ما كان وما سيكون، وكل وجه

---

(١) البقرة: ٢٨٢.

(٢) قال محقق شرح السُّنة جـ ١/ ٢٦٢: هو مرسل وإسناده ضعيف.

(٣) قال محقق شرح السُّنة جـ ١/ ٢٦٣: أخرجه الطبراني رقم (١٠) بإسنادين ضعيفين الأول لجهالة أحد رواته والثاني فيه إبراهيم بن مسلم الهجري وهو لين الحديث. ورواه ابن حبان في صحيحه رقم (٧٤) وإسناده قوي وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٥٢ ونسبه للبزار، وأبو يعلى والطبراني في الأوسط وقال رجال أحدهما ثقات.

منها يجب الإيمان به والتصديق به والعمل به، فالعمل بالأمر إتيانه وبالنهي الاجتناب عنه، وبالوعد الرغبة فيه وبالوعيد الرهبة عنه، وبالوعظ الاتعاظ، وبالأمثال الاعتبار.

وقيل معنى الظهر والبطن: التلاوة والتفهم، كأنه يقول لكل آية ظاهر وهو أن يقرأها كما أنزلت، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾[1] وباطن وهو التدبر والتفكر، قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾[2])[3].

وقد وضح من كلام هذا الشيخ الجليل أن المراد بالظاهر والباطن هو تلاوة القرآن وتدبره والاتعاظ به والائتمار بأوامره والانتهاء عما نهى عنه، وليس معناه أن لكل آية من كتاب الله معنى ظاهراً يعلمه أهل العلم المختصون بهذا الشأن ومعنى باطناً خفياً لا يصل إليه إلا الجهلة والحاقدون على الإسلام، وهذا المعنى الباطني ليس له ضابط، فكل إنسان له أن يؤوله بما تهواه نفسه ويميل إليه هواه، وحاشا لكتاب الله الذي يقوم عليه صلاح الدنيا والآخرة أن يكون فهمه متروكاً للأهواء.

ومن الحجج الواهية التي يستند عليها هؤلاء في زعمهم الباطل أن هناك علماً ظاهرياً وآخر باطنياً قصة موسى عليه السلام مع الخضر، إذ يعتقدون أن الخضر قد استغنى عن العلم الشرعي والظاهر الذي آتاه الله لموسى عليه السلام، وأن الخضر أفضل من موسى كليم الله الذي هو أحد أولي العزم من الرسل، والصواب أن ليس في قصة الخضر مع موسى حجة ولا دليل لهؤلاء لأن الله أوحى لموسى بشرع لم يعلمه الخضر وعلم الخضر أشياء لم يعلمها لموسى ولهذا قال موسى للخضر: «هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشداً» أي مما علمك الله، وفي

---

(١) سورة المزمل: ٤.

(٢) سورة ص: ٢٩.

(٣) شرح السُّنة جـ ١/٢٦٣ ـ ٢٦٤.

نهاية القصة قال الخضر لموسى بعد أن وضح له الأسباب التي دفعته للأعمال التي أنكرها موسى واقتناع موسى بها: «وما فعلته عن أمري».

قال الإمام القرطبي رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِىۚ﴾: (قال شيخنا أبو العباس[1]: «ذهب قوم من زنادقة الباطنية إلى سلوك طريق تلزم منه هدم الأحكام الشرعية فقالوا: هذه الأحكام الشرعية العامة إنما يحكم بها على الأغبياء والعامة، وأما الأولياء وأهل الخصوص فلا يحتاجون إلى تلك النصوص، بل إنما يراد منهم ما يقع في قلوبهم، ويحكم عليهم بما يغلب عليهم من خواطرهم. وقالوا: وذلك لصفاء قلوبهم عن الأكدار، وخلوها عن الأغبار، فتتجلى لهم العلوم الإلهية والحقائق الربانية، فيقفون على أسرار الكائنات، ويعلمون أحكام الجزئيات، فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكليات، كما اتفق للخضر فإنه استغنى بما تجلى له من العلوم عما كان عند موسى من تلك الفهوم. وقد جاء فيما يقولون: استفت قلبك وإن أفتاك المفتون. وهذا القول زندقة وكفر يقتل قائله ولا يستتاب لأنه إنكار ما علم من الشرائع فإن الله تعالى قد أجرى سنته، وأنفذ حكمته، بأَن أحكامه لا تعرف إلا بواسطة رسله السفراء بينه وبين خلقه، وهم المتلقون عنه رسالته وكلامه، والمبينون شرائعه وأحكامه، اختارهم لذلك وخصهم بما هنالك كما قال: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾[2] والله أعلم حيث يجعل رسالته.

وعلى الجملة فقد حصل العلم القطعي واليقين الضروري وإجماع السلف والخلف على أن لا طريق لمعرفة أحكام الله تعالى التي هي راجعة إلى أمره ونهيه، لا يعرف شيء منها إلا من جهة الرسل فمن قال

---

(١) أبو العباس هو أبو العباس أحمد بن عمر القرطبي صاحب كتاب المُفْهِم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم.

(٢) المجادلة: ١.

إن هناك طريقاً آخر يعرف بها أمره ونهيه غير الرسل بحيث يستغنى عن الرسل فهو كافر، يقتل ولا يستتاب، ولا يحتاج معه إلى سؤال وجواب، ثم هو قول بإثبات أنبياء بعد نبينا محمد ﷺ الذي قد جعله الله خاتم أنبيائه ورسله فلا نبي بعده ولا رسول وبيان ذلك أن من قال يأخذ عن قلبه وأن ما يقع فيه هو حكم الله تعالى وأنه يعمل بمقتضاه، وأنه لا يحتاج مع ذلك إلى كتاب ولا سُنة. فقد أثبت لنفسه خاصة النبوة. فإن هذا نحو مما قاله رسول الله ﷺ: «إن روح القدس نفث في روعي...» الحديث[١].

ومما يحتج به هؤلاء أن الرسول ﷺ خص الإمام علياً بأشياء لم يبح بها لغيره، وقد سئل الإمام علي عن ذلك مرات ومرات، سأله بعض الشيعة وغيرهم ونفى هذا الادعاء الباطل نفياً تاماً، وإليك الأدلة على ذلك:

روى الإمام البخاري في صحيحه عن أبي جحيفة قال: قلت لعلي هل عندكم من كتاب؟ قال: لا، إلا كتاب الله، أو فهم أعطيه رجل مسلم، أو ما في هذه الصحيفة. قال: قلت: وما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل[٢]، وفكاك الأسير[٣] وألا يقتل مسلم بكافر[٤][٥].

قال ابن حجر رحمه الله في الفتح: (وإنما سأله أبو جحيفة عن ذلك لأن جماعة من الشيعة كانوا يزعمون أن عند أهل البيت ـ لا سيما علياً ـ أشياء من الوحي خصهم النبي ﷺ بها لم يطلع غيرهم عليها. وقد

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي.

(٢) العقل: الدية، وإنما سميت به لأنهم كانوا يعطون فيها الإبل، ويربطونها بفناء دار المقتول بالعقل وهو الحبل، وفي رواية ابن ماجة الديات بدل العقل والمراد أحكامها ومقاديرها وأصنافها ـ فتح الباري جـ ٢١٦/١.

(٣) فكاك الأسير: فيها أيضاً حكم تخليص الأسير من يد العدو والترغيب فيه.

(٤) وألا يقتل مسلم بكافر: أي تحريم قتل المسلم بالكافر.

(٥) البخاري حديث رقم (١١١).

سأل علياً عن هذه المسألة أيضاً قيس بن عُباد والأشتر النخعي وحديثهما في مسند النسائي)[١].

وقد ورد في الأخبار الصحاح في السنن أن في هذه الصحيفة «لعن الله من ذبح لغير الله» الحديث، والمؤمنون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم.. الحديث، والمدينة حرم.. الحديث، وفيها فرائض الصدقة وكما قال ابن حجر رحمه الله فإن الصحيفة كانت واحدة وأن جميع هذه الأشياء كانت فيها وفيها دليل على أن الإمام علياً رضي الله عنه كان يكتب شيئاً من الفقه[٢].

ومما يتشبث به هؤلاء ما روى عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: «حفظت[٣] عن رسول الله ﷺ وعائين[٤]، فأما أحدهما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته[٥] قطع هذا البلعوم[٦]»[٧] وفي رواية جرابين بدلاً من وعائين.

قال الحافظ ابن حجر في الفتح: «وعائين» أي ظرفين، أطلق المحل وأراد به الحال، أي نوعين من العلم، بهذا التقرير يندفع إيراد من زعم أنه يعارض قوله في الحديث «كنت لا أكتب» وإنما مراده أن محفوظه من الحديث لو كتب لملأ وعاءين. ويحتمل أن يكون أبو هريرة

---

(١) فتح الباري جـ ١/ ٢٠٤.

(٢) انظر المصدر السابق.

(٣) سبب كثرة حفظ أبي هريرة راجع لدعاء النبي ﷺ له بذلك، قال أبو هريرة رضي الله عنه قلت: يا رسول الله إني أسمع منك حديثاً كثيراً أنساه. قال: «أبسط رداءك»، فبسطته. قال: فغرف بيديه ثم قال: «ضمه». فضممته، فما نسيت شيئاً بعده. البخاري رقم (١١٩).

(٤) وعاءين: ظرفين، أي نوعين من العلم.

(٥) بثثت: أذعت ونشرت.

(٦) البلعوم: مجرى الطعام وهو كناية عن القتل.

(٧) البخاري حديث رقم (١٢٠).

رضي الله عنه أملى حديثه على من يثق به فكتبه له وتركه عنده، والأول أولى[١].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله معلقاً ومبيناً للوعاء الذي لم يبثه أبو هريرة رضي الله عنه: «حمل العلماء الوعاء الذي لم يبثه على الأحاديث التي فيها تبيين أسامي أمراء السوء وأحوالهم وزمنهم وقد كان أبو هريرة رضي الله عنه يكني عن بعضه ولا يصرح به خوفاً على نفسه منهم، كقوله: «أعوذ بالله من رأس الستين وإمارة الصبيان» يشير إلى خلافة يزيد بن معاوية لأنها كانت سنة ستين من الهجرة. واستجاب الله دعاء أبي هريرة فمات قبلها بسنة وقيل ربما أراد الفتنة وما يتعلق بأشراط الساعة وتغيير الأحوال والملاحم في آخر الزمان فينكر ذلك من لم يألف»[٢].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله معلقاً على حديث أبي هريرة هذا ومبيناً لمراده منه وأنه لا حجة لهم في ذلك البتة: «وليس في هذا من الباطن الذي يخالف الظاهر في شيء، بل ولا فيه من حقائق الدين وإنما كان في ذلك الجراب الخبر عما سيكون من الملاحم والفتن، فالملاحم الحروب التي بين المسلمين والكفار والفتن ما يكون بين المسلمين. ولهذا قال عبد الله بن عمر: «لو أخبركم أبو هريرة أنكم تقتلون خليفتكم وتفعلون كذا وكذا لقلتم كذب أبو هريرة» وإظهار مثل هذا مما تكرهه الملوك وأعوانهم لما فيه من الإخبار بتغير دولهم»[٣].

ونقل الحافظ ابن حجر رحمه الله في الفتح قال: قال ابن المنير: جعل الباطنية هذا الحديث ذريعة إلى تصحيح باطلهم حيث اعتقدوا أن للشريعة ظاهراً وباطناً وذلك الباطن إنما حاصله الانحلال من الدين[٤].

---

(١) الفتح جـ ١/٢١٦.
(٢) فتح الباري جـ ١/٢٦.
(٣) الفتاوي مجلد ١٣/٢٥٥ ـ ٢٥٦.
(٤) الفتح جـ ١/٢١٠.

وهذا هو الحق فإن الأخبار التي لم يبثثها أبو هريرة هي أخبار الفتن والملاحم التي حدثت للمسلمين فقد خصه رسول الله ﷺ بذلك، ولعدم الفائدة من نشرها وبثها بين الناس لم يبح بها أبو هريرة، كما خُص حذيفة بمعرفة أسماء المنافقين.

ويستدل هؤلاء بحديث موضوع هو: «إن من العلم كهيئة المخزون لا يعلمه إلا العلماء بالله، فإذا نطقوا به لم ينكره إلا أهل الغرة بالله» قال عنه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: الحديث المذكور من الأحاديث المختلقة التي لم يروها أحد من أهل العلم ولا توجد في شيء من كتب الحديث[1].

ومن ذلك ما يرويه بعض الكذابين عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «كان النبي ﷺ وأبو بكر يتحدثان وكنت كالزنجي بينهما».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله معلقاً عليه ومبيناً أنه كذب وافتراء: «فهذا من أظهر الأكاذيب المختلقة لم يروه أحد من علماء المسلمين في شيء من كتب العلم، وهو من أظهر الكذب، فإن عمر أفضل الأمة بعد أبي بكر، وهو المُحَدَّث الملهم الذي ضرب الله الحق على لسانه وقلبه، وهو أفضل المخَاطَبين المحدَّثين من هذه الأمة، فإذا كان هو حاضراً يسمع الألفاظ ولم يفهم الكلام كالزنجي، فهل يتصور أن يكون غيره أفهم منه لذلك؟ فكيف بمن لم يسمع ألفاظ الرسول»[2].

وأما معرفة حذيفة بن اليمان رضي الله عنه واختصاصه بمعرفة المنافقين فهذا ما خصه به رسول الله ﷺ عام تبوك. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: فقد ثبت في الصحيح أن حذيفة كان يعلم السر الذي لا يعلمه غيره وكان ذلك ما أسره إليه النبي ﷺ عام تبوك من أعيان

---

(١) مجموع الفتاوي مجلد ١٣/ ٢٣١ ـ ٢٣٢.
(٢) المصدر السابق ٢٥٣.

المنافقين، فإنه روى أن جماعة من المنافقين أرادوا أن يحلوا حزام ناقة رسول الله ﷺ بالليل ليسقط عن بعيره فيموت، وأنه أوحى الله إليه بذلك، وكان حذيفة قريباً منه فأسر إليه أسماءهم»[1] وهذا بمثابة تبشير رسول الله ﷺ لبعض أصحابه بالجنة مثل العشرة المبشرين بالجنة وعُكّاشة بن محصن وغيرهم.

ومما يحتج به هؤلاء ما رواه البخاري رحمه الله عن الإمام علي رضي الله عنه أنه قال: «حدثوا الناس بما يعرفون، ودعوا ما ينكرون، أتحبون أن يكذب اللَّهُ ورسولُه»[2] ومن هذا القبيل قول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «ما من رجل يحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كانت فتنة لبعضهم».

والمراد بذلك ألا يحدث العامة ببعض الأحاديث التي لا تحتملها عقولهم فيكذبون بها ويقعون بسبب ذلك في خطر عظيم، وليس المراد بذلك أن بعض الصحابة كانوا يظهرون شيئاً ويبطنون آخر مخالفاً لما أظهروا، حاشاهم فهذه ليست من صفات المؤمنين الصالحين فكيف نصف بها أصحاب رسول الله ﷺ؟!

مما سبق ذكره يتضح لنا بطلان تقسيم العلم إلى علم شريعة وحقيقة، وأن هذا نوع من الانحلال من الدين وأن القائل بذلك يقتل كفراً ولا يستتاب.

---

(١) مجموع الفتاوي مجلد ١٣/ ٢٥٤.

(٢) البخاري بحاشية السندي جـ ١/ ٣٧ كتاب العلم، باب من خص بالعلم قوماً دون قوم.

الوقفة التاسعة

الولاية في الإسلام قوامها الإيمان والتقوى والفقه في الدين وعند المتصوفة قوامها الوراثة والكشف والخوارق:

قوام الولاية وأساسها في الإسلام الإيمان والتقوى والعلم، فكل مؤمن تقي فهو ولي لله، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[1].

قال الحافظ ابن كثير في تفسيرها: (يخبر تعالى أن أولياءه هم الذين آمنوا وكانوا يتقون كما فسرهم بهم فكل من كان تقياً كان ولياً)[2].

فكل مؤمن تقي فهو ولي، ولكن لأن الناس يتفاوتون في إيمانهم وتقواهم تفاوتوا في ولايتهم، فهناك ولاية كاملة وأولياء كمل وهناك ولاية ناقصة وأولياء ناقصين.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾[3].

---

(١) يونس: ٦٢ ـ ٦٤.

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢/ ٤٢٢.

(٣) المائدة: ٥٥ ـ ٥٦.

وقال ﷺ: «من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه ولا يزال عبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها» الحديث[١].

وقال الإمامان الجليلان أبو حنيفة والشافعي رحمهما الله تعالى: (إن لم يكن العلماء هم الأولياء[٢] فليس لله ولي). لأن العلم أساس العمل ولهذا قال تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾[٣] فبدأ بالعلم قبل العمل لما له من أهمية ولأن العبادة لا تقوم على جهل. ولا يمكن أن يتخذ الله سبحانه وتعالى ولياً جاهلاً قط. ولهذا فطن الصوفية لذلك وزعموا أنه إذا اتخذ ولياً علمه في الحال بما يسمونه بالعلم اللدني أي لقنه العلم تلقيناً وحشاه به حشواً حيث يمكن أن يصبح وقد أحاط بكل شيء وصار يعلم كل شيء من العرش إلى الفرش كما يقول المتصوفة!

والأدلة على أن الولاية ليست بالوراثة كثيرة جداً منها:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾[٤].

وقوله ﷺ: «لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي

---

(١) صحيح البخاري كتاب الرقاق باب التواضع رقم (٦٥٠٢).

(٢) أرجو أن تقارن بين هذا القول وهذه الشهادة الصادرة من إمامين من أئمة المسلمين المقتدى بهم وبين ما قاله أبو القاسم الجنيد بن الشيخ على النّيل موصياً بذلك الشيخ زين العابدين ومحذراً له من محاكاة العلماء والاقتداء بهم: (يا زين العابدين إذا جالست القوم أمسك خاطرك لا تحاكي الفقهاء فإن قلوبهم محجوبة عن الله). انظر ترجمة الجنيد في الطبقات رقم (١٠) ص ٧١، سبحان الله إذا كانت قلوب الفقهاء محجوبة فقلوب من البصيرة؟! ولماذا لم يمسك موسى عليه السلام مع الخضر عليه السلام؟ وما قاله موسى هو الحق الذي ينبغي على كل مسلم أن يقوله آمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر.

(٣) محمد: ١٩.

(٤) الحجرات: ١٣.

ولا أبيض على أسود ولا أسود على أبيض إلا بالتقوى، الناس من آدم وآدم من تراب»[١].

وقال ﷺ: «من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه».

وقوله ﷺ: «ألا إن آل أبي (يعني فلان) ليسوا لي بأولياء إنما وليي الله وصالح المؤمنين»[٢].

وقد مثل الله للمؤمنين بامرأة فرعون ومريم ابنة عمران، وضرب مثلاً للكافرين بامرأة نوح وامرأة لوط وقد كانتا تحت رسولين كريمين.

وقال ﷺ لفاطمة ابنته وأعز الخلق عليه: «والله لا أغني عنك من الله شيئاً» وكذلك قال لعمه العباس ولعمته صفية.

هذه هي مقومات الولاية وأسسها في الإسلام: الإيمان والتقوى والفقه في الدين.

أما عند المتصوفة فلها مقومات وأسس مغايرة لما ذكرنا، فأهم مقومات الولاية عند المتصوفة ما يأتي:

١ - الوراثة فالولي لا يلد إلا ولياً.

٢ - حدوث الخوارق كالطيران في الهواء والمشي على الماء.

٣ - الكشف ومطالعة الغيب!!

٤ - الاستمداد من المشايخ.

وسندلل على ذلك بما حكاه مؤلف الطبقات عن كثير ممن ترجم لهم لتعرف الفرق بين المنهجين والبون الشاسع بين الطريقتين، طريقة

---

(١) قال في مجمع الزوائد جـ ٨/ ٨٧ رواه الطبراني في الأوسط والبزار بنحوه وقال: رجال البزار رجال الصحيح.

(٢) مسلم كتاب الإيمان رقم (٣٦٦).

أهل السُّنة الحنفاء وما عليه المتصوفة من الغلو والاعتداء في الدين، وإليك طرفاً مما جاء في الطبقات:

يقول صاحب الطبقات عن أبي القاسم الجنيد بن الشيخ علي النيل عندما خلّف مكان أبيه أنه: (كان أمياً لم يخط ولم يقرأ كما كان جده الشيخ محمد الهميم. وكان مشغولاً برعاية البقر ولكن عندما خلف مكن فقام مقام أبيه في الحال في السلوك وتربية المريدين وإرشادهم وأعطي القبول التام عند الخاص والعام)[١]. وكان أخوه شرف الدين حاضراً، وهو حافظ عالم ومع ذلك لم يخلف!!!

مقومات الولاية ودرجاتها عند الشيخ إدريس بن الأرباب هي كما قال[٢]: (درجات الأولياء على ثلاثة أقسام: عليا، ووسطى، وصغرى:

فالصغرى أن يطير في الهواء ويمشي على ظهر الماء وينطق بالغيبيات(!!!).

والوسطى أن يعطيه الله الدرجة الكونية: إذا قال لشيء كن فيكون، وهذا مقام دفع الله ولدي[٣].

والكبرى: وهي درجة القطبانية. قال الشيخ بلل الشيب بن الطالب: اسم أبوي دفع الله اسم الله الأعظم. وكان إذا كتب حجاباً - أي الشيخ دفع الله - كتب فيه جميعه: دفع الله دفع الله).

ويقول عن محمد بن فايد الشريف أنه كان جالساً مع الشيخ إدريس بن الأرباب: (فجاءه أهله ليسوقوه فسقاه الشيخ لبناً فرغوه من سعن في وقته صار مثل السراج وتكلم في علم الظاهر والباطن)[٤].

---

(١) الترجمة رقم (١٠) ص ٧٠ - ٧١.

(٢) ص ٢٠٦.

(٣) ابن الشيخ محمد بن إدريس ص ٢٠٥.

(٤) الترجمة رقم (٢٠٧) ص ٣٢٣.

وقال عن الشيخ موسى أبو قصة: (وكان إذا نظر للأعرابي الجلف ينطق بالحكمة. وأرشد خلقاً كثيراً بمجرد النظر، وبوصله في درجات الأولياء[١]، ووقعت له كرامات وخوارق عادات منها علمه بمنطق الطير. فذات يوم هو جالس والمشاطة تمشط رأسه فقابلته طيرة بكوة[٢] البيت فسكسكت[٣]، ثم هو أيضاً سَكْسَك، فقالت له المشاطة: سألتك بالله الذي لا إله إلا هو الطير شِنْ قلت لك؟ وأَنْتَ شِنْ قلت لها؟ فقال: امرأة مختلفة مع زوجها فوافقت بينهما)[٤].

وقال عن الشيخ مرزوق ابن الشيخ يعقوب: (أخذ علم الظاهر والباطن عن أبيه)[٥].

وقال عن الشيخ يوسف بن الشيخ محمد الطريفي: (فمجرد موت أبيه جميع سره وبركته وهيبته انطوت فيه)[٦].

وقال عن أبي دليق أنه عندما دنا أجله قالوا له: من الخليفة بعدك؟ قال: عائشة ابنتي)[٧]. وكان له ولد اسمه حسين.

وقال عن الشيخ يعقوب ابن الشيخ بان النقا: (جميع سر بان النقا وسر الشيخ تاج الدين سرى فيه وكذا سر ابن جابر)[٨].

وقال عن محمد قيلي بن الحاج حبيب بن حبيب نسي الركابي:

---

(١) ما أرخص درجات الأولياء إذا كان الوصول إليها بهذه السهولة، بنظرة، فلماذا تعجب إذاً من قول الختمية نظرة يا أبا هاشم؟!.

(٢) النافذة أو الطاقة.

(٣) أي شقشقت، كما قال محقق الطبقات ص ٣٢٥ هامش ٨.

(٤) الترجمة رقم (٢٠٨) ص ٣٢٥.

(٥) الترجمة رقم (٢٠٩) ص ٣٢٨.

(٦) الترجمة رقم (٢٧٠) ص ٣٧٤.

(٧) الترجمة رقم (١١) ص ٧٢.

(٨) الترجمة رقم (٢٦٨) ص ٣٧٢.

(ومنها ـ أي كراماته!! ـ فذات يوم جينا منتظرنه لصلاة الصبح فشفناه جاء طايراً بين السماء والأرض فنزل عند باب خلوته فخطا خطوتين عند نزوله كالصقر ثم دخل خلوته فلم يصل معنا الصبح(!!!))[١].

هل يمكن أن يكرم الله رجلاً يتخلف عن الصلاة في جماعة؟!

مع ذلك يقول عنه صاحب الطبقات: (ودخل في قبة جده غلام الله[٢] في ضُنَقلة وقال: الأولياء فيهم أوتاد وأحبار وأَبدال ونجبا فكلهم خرجوا من ظهر جدي هذا)[٣].

وقال عن القدال بن عبودي المشهور بالفرضي: (ويحكى أن طلبته قالوا له: يا سيدي نطلب منك تورينا الطيران في الهواء فطار بعنقريبه بالهواء والناس تنظر كذلك ثم نزل في محله)[٤].

وقال عن نعيم عبد الشَرْكة ابن الحاج الجعلي النواهي وهو يعدد في كراماته: (جاء زولاً من السلطنة قبضَ له جملاً مقيداً في خامة[٥] فطلبه أن يرده، امتنع من ذلك واسترذل خلقته فخطف الجمل بقيده وطار به في الهواء حتى رماه إلى محله. ويقولوا: ختاف الجمل بقيده)[٦].

وقال عن نَتَّة بن الترابي، أخي حمد بن الترابي: (وسبب دخول حمد في الطريق[٧] وذلك أن الشيخ حمد لما قدم من الطلب من شيخه

---

(١) الترجمة رقم (٢٣٢) ص ٣٥٠.
(٢) غلام الله بن عائد اليمني الذي دخل السودان في أواسط القرن الرابع عشر كما قال المحقق.
(٣) المصدر السابق.
(٤) الترجمة رقم (٢٠) ص ٨٣.
(٥) قال يوسف فضل: الخامة معناها مصادرة الأموال في الحرب أو إثر الامتناع عن تسديد الضرائب هامش ٨ ص ٣٦٥.
(٦) الترجمة رقم (٢٥٦) ص ٣٦٥.
(٧) بعد أن كان يدرس الفقه خليل والرسالة.

ابن التنقار نازع أخوه الفقيه[١] نَنَّة في ميراث كُتِبَ بينهما تركة وخرجا للقاضي مقابلهم في الشرق في ولد عشيب. وسبق الفقيه نَنَّة إلى البحر منتظر مركب. والشيخ حمد جاء منتظر المركب قاعد في محل آخر. فإن الفقيه ننة عنده قش جامعه فوق البحر جاءت عجول ترعى القش. فالتفت يميناً وشمالاً فلم ير أحداً فجدع أحد العجول من وراء البحر بالعكاز، ثم مد يده جابه الشيخ حمد ينظر. فقال: سبحان الله أخوي هذا الخير كله فيه، وأنا أفنيت عمري في خليل. فمن ذلك الوقت انشغل بالطريقة والرياضة حتى كان من أمره ما كان. وقال شاعرهم:

جَنْ أَسَدَين ماسكات الشارب رابقات للدود والسارب

لا تقع فيهن يا خارب دَهْ نَنَّة مع حمد بن الكارب)[٢]

اعلم أخي الكريم أن الطيران في الهواء والمشي على الماء ليسا دليلاً على ولاية ولا كرامة، بل إن دلالتهما على تولي الشيطان للشخص أقرب من دلالتهما على تولي الله عز وجل للعبد، ولهذا قال الشافعي رحمه الله محذراً لإخوانه المسلمين من الاغترار بالخوارق مهما كانت: (لو رأيتم الرجل يمشي على الماء أو يطير في الهواء فلا تغتروا به ولا تقبلوه حتى تعرضوه على كتاب الله فإن الشيطان يستطيع أن يطير من المشرق إلى المغرب). أو كما قال.

فحدوث الخوارق وحده ليس دليلاً على إكرام الله للعبد، فقد يكون العبد من ألد أعداء الله ومع ذلك يجري الله على يديه خوارق عظيمة كما سيحدث للمسيح الدجال استدراجاً له ولأمثاله.

سمى صاحب الطبقات من أخذ من الشيخ محمد بن عيسى

---

(١) الفقيه يعني الفكي عند السودانيين.

(٢) الترجمة رقم (٢٥٨) ص ٣٦٥ ـ ٣٦٦.

المشهور بسوار الذهب: (وممن أخذ عليه... عبد الرحيم بياع المطر(!!!))[١].

وقال عن مختار ولد أبي عنابة: (سلك طريقة الصوفية على الشيخ طه بن عمار النويري، وسلكه وأرشده في أيام قليلة حصل له الفتح وتكلم بعلم الغيب)[٢].

ونقل عن الشعراني أنه قال: (سيدي مدني وسيدي محمد المصري طلبا الطريق عند سيدي أحمد الزاهد، سيدي مدني حصل له الفتح في ثلاثة أيام وسيدي المصري مكث خمس عشرة سنة)[٣].

وقال عن مكي الدقلاشي الذي سلك الطريق على الشيخ دفع الله: (فدخل الخلوة أسبوعاً فخرج منها ولياً من أولياء الله تعالى فسافر إلى بلده وسلك الناس الطريق وأرشد وظهرت على يديه كرامات وخوارق عادات. فإنه جاء لزيارة شيخه فلم يجدوا المركب فمشى هو وحيرانه على الماء حتى خرجوا منه)[٤].

هذا قليل من كثير، وغيض من فيض مما ذكره صاحب الطبقات وفيما ذكرنا غنى عما أغفلنا.

---

(١) الترجمة رقم (٢٣٠) ص ٣٤٧.

(٢) الترجمة رقم (٢٢٩) ص ٣٤٦.

(٣) المصدر السابق ص ٣٤٦ ـ ٣٤٧.

(٤) الترجمة رقم (٢١٣) ص ٣٣٢ ـ ٣٣٣.

الوقفة العاشرة

هل للأطفال والبله والمجانين والمجاذيب والفساق ولاية وكرامة؟!

الولاية والكرامة لا ينالها أحد من غير المكلفين البالغين العاقلين، فأولياء الله هم المؤمنون المتقون، فكيف يكون ولياً لله من لا يستطيع أن يتقرب إلى الله بسبب جنون أو صغر أو زوال عقل بسكر وفناء حسي أو معنوي؟!

ومن العجيب الغريب أن ينسب طفل أو مجذوب أو أبله أو معتوه إلى ولاية الله عز وجل التي هي من أكرم الكرامات وأجل المنازل، أو أن تنسب وتضاف إليه كرامة، أو يعتقد في صلاحه وبركته وهو على هذه الحال.

غاية ما يتعلق بالأطفال والمجانين ومسلوبي العقول أن القلم قد رفع عنهم كما أخبر بذلك الصادق المصدوق، وأنهم معفيون عن المساءلة والمحاسبة يوم القيامة. فقد روي عن علي وعائشة رضي الله عنهما يرفعانه إلى الرسول ﷺ: «رفع القلم عن ثلاثة: عن المجنون حتى يفيق، وعن الصبي حتى يحتلم وعن النائم حتى يستيقظ»[١].

فالمجنون والمعتوه لا تصح لهما عبادة، غير الصبي المميز، فكيف يعتقد في صلاحهما وينسبون إلى ولاية الله؟ فقط نتيجة حدوث خارق على يديه أو سماع مكاشفة، على قولهم، منه؟

(١) رواه أهل السنن.

لقد كنت متعجباً جداً من اعتقاد البعض، ومنهم من ينسب إلى العلم والفقه، من اعتقادهم في صلاح وولاية بعض المعتوهين وفاقدي العقل ممن لا يحسن أن يتطهر من الأحداث وينسبون لهم كثيراً من الكرامات والمكاشفات ويصدقونهم في كل ما يقولون ولا يخالفون لهم أمراً قط!!

يقول شيخ الإسلام في الفتاوي[1]: (وإذا كان العبد لا يكون ولياً لله إلا إذا كان مؤمناً تقياً لقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ وفي صحيح البخاري الحديث المشهور - وقد تقدم - يقول الله تبارك وتعالى فيه: «ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه» ولا يكون مؤمناً تقياً حتى يتقرب إلى الله بالفرائض فيكون من الأبرار أهل اليمين، ثم بعد ذلك لا يزال يتقرب بالنوافل حتى يكون من السابقين المقربين. فمعلوم أن أحداً من الكفار والمنافقين لا يكون ولياً لله.

وكذلك من لا يصح إيمانه وعباداته وإن قدر أنه لا إثم عليه، مثل أطفال الكفار ومن لم تبلغه الدعوة - وإن قيل إنهم لا يعذبون حتى يرسل إليهم رسول - فلا يكونون من أولياء الله إلا إذا كانوا من المؤمنين المتقين، فمن لم يتقرب إلى الله لا بفعل الحسنات ولا بترك السيئات لم يكن من أولياء الله. وكذلك المجانين والأطفال. فإن النبي ﷺ قال: «رفع القلم عن ثلاثة: عن المجنون حتى يفيق، وعن الصبي حتى يحتلم، وعن النائم حتى يستيقظ» وهذا الحديث قد رواه أهل السنن من حديث علي وعائشة رضي الله عنهما، واتفق أهل المعرفة على تلقيه بالقبول. لكن الصبي المميز تصح عباداته ويثاب عليها عند جمهور العلماء. وأما المجنون الذي رفع عنه القلم فلا يصح شيء من عباداته باتفاق العلماء. ولا يصح منه إيمان ولا كفر ولا صلاة ولا غير ذلك من العبادات، بل لا

---

(١) مجلد ١١/١٩٠ - ١٩٤.

يصلح هو عند عامة العقلاء لأمور الدنيا كالتجارة والصناعة. فلا يصلح أن يكون بزازاً ولا عطاراً ولا حداداً ولا نجاراً ولا تصح عقوده باتفاق العلماء. فلا يصح بيعه ولا شراؤه ولا نكاحه ولا طلاقه ولا إقراره ولا شهادته. ولا غير ذلك من أقواله، بل أقواله كلها لغو لا يتعلق بها حكم شرعي، ولا ثواب ولا عقاب، بخلاف الصبي المميز فإن له أقوالاً معتبرة في مواضع بالنص والإجماع. وفي مواضع فيها نزاع.

وإذا كان المجنون لا يصح منه الإيمان ولا التقوى ولا التقرب إلى الله بالفرائض والنوافل، وامتنع أن يكون ولياً لله فلا يجوز لأحد أن يعتقد أنه ولي الله، لا سيما أن تكون حجته على ذلك إما مكاشفة سمعها منه، أو نوع من تصرف، مثل أن يراه قد أشار إلى واحد فمات أو صرع، فإنه قد علم أن الكفار والمنافقين - من المشركين وأهل الكتاب - لهم مكاشفات وتصرفات شيطانية كالكهان والسحرة وعباد المشركين وأهل الكتاب، فلا يجوز لأحد أن يستدل بمجرد ذلك على كون الشخص ولياً لله وإن لم يعلم منه ما يناقض ولاية الله، فكيف إذا علم منه ما يناقض ولاية الله؟! مثل أن يعلم أنه لا يعتقد وجوب اتباع النبي ﷺ باطناً وظاهراً، بل يعتقد أنه يتبع الشرع الظاهر دون الحقيقة الباطنة. أو يعتقد أن لأولياء الله طريقاً إلى الله غير طريق الأنبياء عليهم السلام. أو يقول: إن الأنبياء ضيقوا الطريق أو هم على قدوة العامة دون الخاصة ونحو ذلك مما يقوله بعض من يدعي الولاية فهؤلاء فيهم من الكفر ما يناقض الإيمان. فضلاً عن ولاية الله عز وجل. فمن احتج بما يصدر عن أحدهم من خرق عادة على ولايتهم كان أضل من اليهود والنصارى.

وكذلك المجنون. فإن كونه مجنوناً يناقض أن يصح منه الإيمان والعبادات التي هي شرط في ولاية الله. ومن كان يجن أحياناً ويفيق أحياناً. إذا كان في حال إفاقته مؤمناً بالله ورسوله ويؤدي الفرائض ويجتنب المحارم، فهذا إذا جن لم يكن جنونه مانعاً من أن يثبه الله على إيمانه وتقواه الذي أتى به في حال إفاقته، ويكون له من ولاية الله بحسب ذلك.

وكذلك من طرأ عليه الجنون بعد إيمانه وتقواه، فإن الله يثيبه ويأجره على ما تقدم من إيمانه وتقواه، ولا يحبطه بالجنون الذي ابتلي به من غير ذنب فعله. والقلم مرفوع عنه في حال جنونه.

فعلى هذا فمن أظهر الولاية وهو لا يؤدي الفرائض ولا يجتنب المحارم بل قد يأتي بما يناقض ذلك. لم يكن لأحد أن يقول هذا ولي الله، فإن هذا إن لم يكن مجنوناً بل كان متولهاً من غير جنون أو كان يغيب عقله بالجنون تارة ويفيق أخرى وهو لا يقوم بالفرائض، بل يعتقد أنه لا يجب عليه اتباع الرسول ﷺ فهو كافر، وإن كان مجنوناً باطناً وظاهراً قد ارتفع عنه القلم، فهذا وإن لم يكن معاقباً عقوبة الكافرين فليس هو مستحقاً لما يستحقه أهل الإيمان والتقوى من كرامة الله عز وجل. فلا يجوز على التقديرين أن يعتقد فيه أحد أنه ولي الله، ولكن إن كان له حالة في إفاقته كان فيها مؤمناً بالله متقياً. كان له من ولاية الله بحسب ذلك وإن كان له في حال إفاقته كفر أو نفاق أو كان كافراً أو منافقاً ثم طرأ عليه الجنون، فهذا فيه من الكفر والنفاق ما يعاقب عليه وجنونه لا يحبط عنه ما يحصل منه حال إفاقته من كفر أو نفاق).

على الرغم من ذلك فإننا نجد الصوفية ينسبون الولاية والصلاح لبعض المجانين والمعتوهين والمجذوبين ويعدون ما صدر منهم من مكاشفات وتصرفات كرامات يمدحونهم بها ويكرمونهم من أجلها، وإليك بعض النماذج من هذا مما ذكره مؤلف الطبقات عن بعض هؤلاء:

يقول عن محمد القدال بن إبراهيم بن عبودي المشهور بالفرضي[١]: (وكان من صغره ينطق بعلم الغيب. وكان جسيماً فرآه رجل فقال: جسامة بلا أكل وشرب فقال له مكاشفاً: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾[٢].

---

(١) الترجمة رقم (٢٠) ص ٨١.

(٢) النمل: ٨٨.

فالدليل عندهم على ولاية هذا الرجل وصلاحه بل علمه الغيب بهذه المكاشفة وكذلك عندما طلب منه طلبته أن يريهم الطيران في الهواء طار «بعنقريبه» ثم عاد إليهم(١)!!.

هل الطيران في الهواء دليل صلاح؟ إذاً فالشيطان الذي يطير من المشرق إلى المغرب من الصالحين، والمسيح الدجال الذي تطوى له الأرض من أهل الحظوة عند الصوفية ولهذا أخشى إن عاصره هؤلاء ألا يتخلف منهم أحد عن متابعته وتصديقه أنه هو ربهم لما يجريه الله على يديه من الخوارق العظام والأمور الجسام.

وقال عن مكي الدقلاشي(٢) حاكياً بعض كراماته: (وظلم حيرانه رجل اسمه أزرق من جماعة شيخ إليس وادَّلّى(٣) سنار فدخل في مسجد الملك قايمة عليه الحالة(٤) مزّق مصحفاً وجده في الطاقة(٥) فدخّله الخطيب والقاضي على الملك فسألهم الملك عن ذلك فقال له(٦) شعراً:

من يوم قمت سموني الهايم صابوناً لي أبْ جناً قايم

يا كاشر(٧) جيب السلطيّة الشَقْدين ارفعهنا لِيَّ

فأومأ للملك بأصبعه فزاغ الملك. قال(٨) لأصحابه: إن كان ما زُغْتَ كان أصبعه يَقِد راسي. قالوا له: هذا مكي الدقلاشي ظلمه زولاً

(١) ص ٨٣.
(٢) الترجمة رقم (٢١٣) ص ٣٣٣.
(٣) أي ذهب إلى سنار وهذه عامية سودانية ـ أي الشيخ.
(٤) نوع من الجنون.
(٥) النافذة.
(٦) القائل الشيخ.
(٧) اسم مولاه.
(٨) أي الملك.

لشيخ إليس[١] وأرسل الملك إلى شيخ أليس يرد مظلمته وهداه[٢]، وقال لهم: تظلموا المثل هذا؟!

فشكا إليه الملك بادي من التمساح وقال له: التمساح شال[٣] حصانه غطس[٤] في البحر وقلّع في وقته، جميع التماسيح قلعت ميتة.

وكان للشيخ رضي الله عنه دنيا عريضة).

هل هناك جن أكبر من ذلك أن يمزق شخص المصحف؟! بل نسمي مثل هذا النوع من الجنون «كلكي» أي جناً عاتياً وشيطاناً عاتياً. غاية ما هناك أن الشيخ الدقلاشي لا يعاتب على تمزيق المصحف وهو في هذه الحال وإلا فلو صدر مثل هذا التصرف من عاقل لحكم بردته، أما أن تعتبر هذه كرامة وصاحب هذه الحالة ولياً لله فكلا.

ونسب أو نقل صاحب الطبقات لولد الدقلاشي واسمه إسماعيل وكان طفلاً رضيعاً أنه تكلم فقال: (وأخوه[٥] إسماعيل في حالة الرضاع قال: النور يجي وأبوي ما يجي)[٦] وذلك لأن الدقلاشي قامت عليه الحال وهام على وجهه ومعه ابنه النور.

وقال عن سلمان الطوالي الزَّغرات[٧]: (أخذ طريق القوم من الشيخ محمد الهميم. وسبب بداية أمره أنه كان فاسقاً[٨] بابكولاً[٩]

---

(١) اسم بلد بالنيل الأبيض اندرس الآن كان مركزاً في جنوب النيل الأبيض الكوة الآن.

(٢) أي أهدى إليه.

(٣) عامية سودانية بمعنى أخذ.

(٤) أي الشيخ.

(٥) الضمير يعود إلى أخي إسماعيل هذا واسمه النور.

(٦) الترجمة السابقة ص ٣٣٤.

(٧) اسم فاعل من الزغاريد التي تفعلها بعض النساء في مناسبات الأفراح.

(٨) بل استمر على هذه الحال، إذ الفسق ليس خاصاً بشرب الخمر، فقد ظل سلمان هذا يضرب الطبل ويرقص ويزغرد إلى أن توفاه الله مع أنه ترك شرب الخمر.

(٩) أي كان رئيس المخمورين في وقته، انظر هامش ٥ ص ٢١٨.

للمراسة ومسكنه اللِّبَايتور[١] فهو مسافة من رفاعة، وذلك أن الشيخ محمد الهميم ومعه الشيخ بان النقاء[٢] خرجا من رفاعة طالبين المندرة لاقين سلمان مالي قربته ماء يرق به المريسة[٣] للمراسة. قالوا له: اسقي الفقرا عَطَاشا. فسقاهم فقال له الشيخ محمد: الله يملاك دين. فتاب واستغفر ولحق الشيخ في المُنْدَرة. سلكه طريق القوم وأرشده فانجذب، وغرق، وسكر[٤]، ولبس الجبة وفوقها الرحط قالوا: سلمان جَنَّ[٥] فقال:

قــولــوا لــي مــجــنــون
لاقــونــي نــاس الــمــكــنــون
اسـقـونـي عـسـلاً مـشـنـون

وغصب جارية من أهلها تضرب الدَّلُّوكة[٦] تضرب له الدلوكة اسمها «مَنَانة» وكانت ضرابة لها بجميع أنواع الضرب ويقول لها:

يا مَنَانة دُقِّي الدَّلُوكَة
خَادَمْ الله المَاكْ مَمْلُوكة

وظهرت له كرامات وخوارق عادات[٧] منها أنه يورِّد خيل شيخه من المندرة إلى رفاعة مسيرة ثلاثة أيام أول المختار[٨] ويُبَرِّدْهن ويعقد أذنابها ويصلن لينات(!!!).

---

(١) اسم جبل يقع جنوب شرق مدينة رفاعة.
(٢) تنطق في السودان «بانَّقا».
(٣) اسم نوع من الخمور البلدية تصنع من الذرة بعد تخميره.
(٤) فقط انتقل من السكر الحسي إلى السكر المعنوي.
(٥) صدقوا والله لأنه لا يفعل ذلك عاقل قط.
(٦) الطبل، وهي من الآلات الموسيقية التي يستعملها المتصوفة في ذكرهم وسماعهم ولهذا فهو أشد حرمة من غناء الفنانين لأنهم ينوون به التقرب إلى الله وهو يباعد بينهم وبين الله عز وجل.
(٧) انظر إلى مقومات الولاية عند الصوفية، أو إلى أهمها، ظهور الخوارق!!.
(٨) أي أول الوقت الاختياري لصلاة الظهر.

ويحكى أن الشيخ بان النقا الضرير جاء لزيارة الشيخ محمد الهميم، فسأل محمد الهميم الشيخ بانقا قائلاً له: (يا سيدي البحلف بالطلاق الثلاثة يفعل الفعل وما يفعله؟! قال له: الطلاق لزمه إلا سلمان فإنه غرقان).

فالتفت الشيخ محمد الهميم إلى سلمان وقال: (يا سلمان مرقتك من طريقتي أنا ولد تاج الدين. قال له: ـ أي سلمان ـ (أنا كعكولة[١] فوق عنقريب ما أمرق منها أنا ولد الهميم).

ثم قال ذاكراً ومعدداً كراماته وقد عمي وجلس (فلما سمع بالصلاة على النبي ﷺ من شيوخ قادمين عليه ضيوفاً زغرت وعيناه انفتحتا وزال عنه التكسر، وشال القدح فوق رأسه وتلقاهم وختاه في وجوههم، وسلم عليهم. أول ما وصل فراشه عاد عليه عماه وقعاده[٢] وقالوا[٣]: جميع من أكل ذلك اللحم حصل له فتح)[٤].

قلت: كان سلمان هذا يفعل الآتي: يضرب الطبل، ويتشبه بالنساء بلبس الرحط[٥]، ويزغرد، وقال الشيخ بان النقا لا يقع طلاقه لأنه غرقان، وقد صدق، وغصب امرأة حرة واستعبدها، وغير ذلك.

فهل هذه من صفات الأولياء المتقين؟ وكون الشيخ دعا له وترك شرب الخمر لا يعني أن يتحول بين يوم وليلة ليكون من أولياء الله الصالحين، وهب أنه كان من أولياء الله الصالحين فهل كل من أكل من طعام ولي يحصل له فتح؟ ما العلاقة بين الأكل والشرب وبين الفتح؟!

وحكى عن حوار لحمد النحلان بن الترابي أنه قال: (فزرت

---

(١) قطعة من الصمغ كبيرة، يقصد أنه شُلّ.
(٢) أي شلله.
(٣) القائلون طبعاً هم الحيران والأتباع.
(٤) الترجمة رقم (١١١) ص ٢١٨ ـ ٢٢١.
(٥) هي تنورة من سيور الجلد.

الشيخ حمد فوجدته قايمة عليه الحالة، وسنونه يقولن كَرَج كَرَج كل يد على فقير) ثم انتظر الحوار حتى ذهبت عنه الحالة فقال له الشيخ: (يا ولد أبو جويلي وين ماشي؟ قلت: لي ديناً في الجديد. فقال لي: بتخلص فيه كذا وكذا. وينقطع فيه كذا)[١]. أي فكاشفه مباشرة بعد أن فاق من حالته، قال الفقير: فكان الأمر كما أخبر به الشيخ!!

كثيراً ما يذكر صاحب الطبقات عمن يترجم لهم أنه «لما كان في حال الجذب الإلهي» أو «لما قامت عليه الحالة» ونحو ذلك، فما المراد بالحالة؟

المراد بالحالة أحد هذه الأمور:

أحدها: أن تكون هذه الحالة حالة مرضية كالجنون والصرع.

ثانيها: أن تكون من الأحوال الشيطانية.

ثالثها: حالة غياب العقل بأي سبب من الأسباب، ولكنها ليست بحال من الأحوال حالة صحية محمودة، وكل هذه الأمور غير محمودة.

من ذلك ما قاله عن محمد قيلي بن الحاج حبيب بن حبيب نسي الركابي[٢]: (وكان من أرباب الأحوال. وكان إذا قامت عليه الحالة ينعطن[٣] في البحر أياماً حتى يبرد ما عليه فيخرج منه. وكان وقت قيام الحالة عليه إذا خرج مسافراً يتبعه أهل البلد الذي يمر عليه حتى مواشيهم من خيل وبقر وحمير بأن يحصل عليهم قلق لا يستطيعون إلا اللحوق به.

إلى أن قال: ومن كرامات الشيخ قيلي ما حكاه الشيخ عبد الرحمن أبو فاق، قال: أتانا رجل مشرقاوي، تلميذ لأبيه الفقير مدني

---

(١) الترجمة رقم (٧٩) ص ١٦٥.

(٢) الترجمة رقم (٢٣٢) ص ٣٤٩ ـ ٣٥٠.

(٣) أي يغطس.

أصابته الغزال[١] قال: ودوه للشيخ محمد قولوا له: اعزم له وعافيه من المرض برواج[٢] الفقراء لا تبطل قراءتهم. قال: فسافرنا من نوري فلما جينا في قشابي قالوا لنا: قايمة عليه الحالة له أياماً منعطن في البحر، فلما دنونا من خلوته وجدناه انحل[٣] من البحر طالب خلواته. فأخبرناه بكلام الفقيه بشفا الفقير والعجلة. في مكانه أخذ أحجاراً صغاراً فعزم عليها ورفعها للهواء فوقعت زرازيراً ميتة وقال الفقرا هل يصلوا[٤] المحل يستطعموا ويرجعوا).

وقال عن الشيخ إسماعيل صاحب الربابة ابن الشيخ مكي الدقلاشي[٥]: (وله كلامات يتغزل فيها بمدح النساء تهجة وهيبة مثل ليلى[٦] وسعدى في كلام المتقدمين. وأخبرني تلميذه الفقيه أبو النور الرياشي قال: أول ما تقوم عليه الحالة يمشي في حوشه ويحضر البنات، والعرايس والعرسان للرقيص ويضرب الربابة كل ضربة لها نغمة يفيق منها المجنون، وتذهل منها العقول وتطرب لها الحيوانات والجمادات حتى إن الربابة يضعونها في الشمس أول ما تسمع صوته تضرب على نغمته من غير أحد[٧] يضربها، وفرسه بنت بكر يشدوها له ويلبسوها الحرير والجرس وقوادها ماسكاها أول ما تسمع ترنمه في كلام الحرب وهو يقول:

بنت بكر المرْدَا سطلية[٨] العرضا

---

(١) أي الجنون.

(٢) أي بسرعة.

(٣) أي خرج.

(٤) يعني اليصلو أو فليصلوا.

(٥) ترجمة رقم (٢٩) ص ٩٢.

(٦) يرمز الصوفية في مدائحهم إلى المولى عز وجل بليلى وسعدى وتهجة وهيبة ونحو ذلك، وإلى الرسول بالبريق، الليلة البريق نعوذ بالله من الخذلان.

(٧) إلا الشيطان.

(٨) الحربة الكبيرة.

فإن الفرس تقوم وتقعد وتداني برأسها ويديها وتقول «شَلَوْ شَلَوْ»).

قلت: أي علاقة بين الضرب على الربابة والرقص والاختلاط والغناء وبين ولاية الله وكرامات الأولياء؟ إن هذه الأمور لا تحدث إلا من أولياء الشيطان، فكما أن لله أولياء فإن للشيطان أولياء. وقد ألف شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله رسالة وسمها بـ «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان».

وقال عن حسن ولد بليل الركابي[١]: (وكان مجذوباً، غرقاناً، فإذا قامت عليه الحالة يغطس في البحر أياماً، وأصبح ماء البحر يوماً في دنقلا دافياً، سئل عنه الشيخ عووضة فقال: ولد بليل قامت عليه الحالة فغطس في البحر فأصبح دافياً. وأيضاً هو مشى في البحر كالأرض وقال: يا حي يا كيوم ـ من العجمة ـ وحواره معه نطق بالقاف فهرع، فقال له: قل مثلي. فقال مثله فمشى على الماء.

وقال عن سلمان العوضي[٢]: (وكان مجذوباً غرقاناً، وسلك وأرشد، واعتقد فيه الناس. وله كرامات منها أنه حس بقدوم الشيخ عبد الرازق وهو في مزرعة أتلقاه يمشي على الزرع لا انحنا ولا انكسر. ومنها أن أصحابه وقت الذكر يقرشوا الجمر. والواحد يملأ عمامته جمر ويضعها على رأسه ويرقص والسيف والحربة يخرطوهن يخلوهن مثل المسلة.

سبحان الله، أي كرامة في قرش النار وفي حملها في العمامة؟ وهل الرقص عبادة؟ فالسحرة إذاً من أعظم الأولياء!

ومن العجائب الغرائب التي وردت في الطبقات ما حكاه عن خليل الرومي قال: (وأصله ضنقلاوي جابري[٣] فقدم الصعيد وتعبد في جبل

(١) الترجمة رقم (٧٥) ص ١٥٥.

(٢) الترجمة رقم (١١٢) ص ٢٢٢.

(٣) يقول بروفسور يوسف فضل: نسبة إلى جابر بن عبد الله وقد اختلطوا بالضناقلة اختلاطاً شديداً ـ انظر هامش ١٣ ص ٢٠١.

سُرْكم[١] سبعة سنين للعبادة والذكر. ثم جابه الحاج عمارة وسكن في دادول[٢] وبنى مسجده فيها وظهرت له كرامات وخوارق عادات. منها أنه جاءه رجل فقال له: شردت لي خادم منذ عام وقال له: اسأل الله أن يردها علي. فقال له: جيب برمة مريسة وشلاتيت[٣] وديك خصي(!!). فجاب الرجل برمتين ملانتين وديكين خصيان. فصفوا المريسة وشربوها هو وضناقلته الذين معه. ثم جاءه الرجل العصر وقال له: أين خادمي؟ فقال: شيل الشجر[٤]، وقل: يا بخيتة ثلاث مرات. فجاءت الخادم شايلة قربة ماء وحبلها على وجهها، وقالت: يا سيدي شِنْ جابك هنا هذا بحر أتبرا؟ وهو قال لها: هذه سنار، فساقها أتاه بها. وقال من بعيد: امش)[٥].

قلت: الذي يعتقد أن هذه كرامة فقد كذب الله ورسوله وخان الأمانة التي أخذت عليه.

ليس لمثل هذا العمل علاقة بالدين ولا بالولاية ولا بالكرامات، وإنما هذا من باب السحر والأحوال الشيطانية التي حمى الله منها عباده الصالحين من الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

---

(١) جبل يقع جنوب شرق سنار ـ انظر هامش ١٤ ص ٢٠١.
(٢) قرية جنوب محطة ود الحداد ـ المصدر السابق.
(٣) خرق وملابس قديمة.
(٤) اذهب إلى الغابة.
(٥) الترجمة رقم (٩٥) ص ٢٠١ ـ ٢٠٢.

الوقفة الحادية عشرة

استحالة رؤيا الرسول ﷺ يقظة، وضابط رؤيته مناماً، وتكذيب دعوى حضوره مجالس الذكر والحوليات والموالد:

يدعي كثير من الصوفية أنهم رأوا الرسول ﷺ يقظة ومناماً، وأنهم اجتمعوا به وأخذوا عنه بلا واسطة. بل إن هناك بعض الطرق الصوفية يزعم مؤسسوها أنهم تلقوا مرسوم إنشائها من عند الرسول ﷺ مباشرة، هذا بجانب زعم كثير منهم أن الرسول ﷺ يحضر حلقات ذكرهم وموالدهم وحولياتهم، فهل هذا ممكن في شرع الله أم لا؟

للإجابة على ذلك لا بد من التفصيل.

أولاً: رؤيا الرسول ﷺ يقظة في هذه الحياة الدنيا بعد انتقاله منها مستحيلة وغير ممكنة، إذ لو كانت ممكنة لرأته فاطمة رضي الله عنها فقد طالبت أبا بكر بميراثها من رسول الله ﷺ فقال لها أبو بكر الصديق رضي الله عنه: «الأنبياء لا يورثون ما تركوه صدقة» الحديث كما جاء عن أبيها رسول الله ﷺ فلو كانت رؤياه ﷺ بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى ممكنة لرأته وسألته عن ذلك وهي من أحب الخلق إليه. وكذلك أبو بكر الصديق، وعمر، وعلي، وعثمان، وغيرهم من الصحابة حزبتهم أمور صعاب، فلو كانت رؤيته ﷺ فداه أبي وأمي ممكنة لما حرم منها السلف الأخيار وفاز بها الخلف.

وهذا من أقوى الأدلة على استحالة رؤياه في الدنيا بعد أن اختار

جوار ربه عز وجل بجانب أنه لم يرد دليل واحد عنه ﷺ ولا عن أصحابه يدل على ما ذهب إليه المتصوفة.

ثانياً: أما رؤياه مناماً فهي ممكنة ولكن بشرط أَنْ يُرَى ﷺ على الهيئة التي كان عليها فمن خرم من صفاته الخَلْقية صفة واحدة فهو لم يره.

قال ﷺ: «من رآني في المنام فقد رآني فإن الشيطان لا يتمثل بي» وفي رواية «لا يتخلق بي»[١].

وما قررناه هو مذهب أهل السُّنة قاطبة وهو مذهب ابن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن حيث قال له أحدهم: إني رأيت رسول الله ﷺ. فقال: صفه لي. فمر الحسن بن علي رضي الله عنه من أمام الرجل فقال: يشبه هذا. فصدقه ابن عباس لأن الحسن كان أشبه الخلق برسول الله ﷺ.

وكذلك قال إمام المعبرين التابعي الجليل محمد بن سيرين من خرم صفة واحدة من صفاته الخَلْقية فهو لم يره لأن الشيطان لا يمكنه أن يتمثل به ويمكنه أن يتمثل بغيره. وما يدعيه الصوفية من أن الشخص يرى الرسول ﷺ حسب حال الرائي، فإن كانت حال الرائي حسنة رآه على كامل هيئته ﷺ وإن كانت حاله ناقصة رآه بأي هيئة كانت لا أساس له، ويعتمدون في ذلك على حديث واه.

وقد قال لي مرة أحد الناس: إني رأيت الرسول ﷺ. فقلت له: صفه لي. فقال: رأيته أبيض طويلاً، حليق اللحية يجلس على كرسي ويجلس أصحابه على الأرض. فتبسمت وسكت.

ومما لا شك فيه أن الذي رآه هذا الرجل وغيره كثير ليس هو الرسول ﷺ.

(١) الحديث متفق عليه.

فالرسول ﷺ ليس أبيض، وليس طويلاً وكان كث اللحية، وما كان يجلس على كرسي بل كان الأعراب عندما يأتونه لا يعرفونه من بين أصحابه، ويقول أحدهم: أيكم محمد؟ حتى يعلمه الصحابة.

ومما يحكى في هذا الصدد أن أحدهم زعم أنه رأى الرسول ﷺ وعندما طلب منه أن يصفه قال: رأيت رجلاً «مشلَّخ شايقي»(١) و«يلبس سديري»(٢)!!.

لقد فتح ادعاء رؤيا الرسول ﷺ يقظة خاصة باباً للزندقة والتلاعب بالدين، فمن زعم أنه رأى الرسول ﷺ يقظة ممن يَحْسن الظن به فعلينا أن نؤول مقاله هذا بأحد أمرين هما:

١ ـ إما أن يكون رآها مناماً لكن شُبه عليه.

٢ ـ وإما أن يكون خدعه الشيطان وَلَبَّس عليه وهو لا يدري، لأن الشيطان يستطيع أن يتمثل بمن شاء من الصالحين وأن يكذب ويدعي أنه رسول الله وما هو برسول الله.

وأكبر دليل على ذلك محاولة الشيطان التلبيس على الشيخ عبد القادر الجيلاني عندما تجلى له على شكل نور وقال له: أنا ربك فقد أَحللتُ لك ما حرمتُ على عبادي! فما كان من عبد القادر رحمه الله إلاَّ أَنْ قال له: اخسأ يا عدو الله. فانجلى النور. فقالوا له: كيف عرفت أنه شيطان؟ فقال: بزعمه أنه أحل لي ما حرمه على عباده. فقد نجا عبد القادر الجيلاني رحمه الله من كيد عدو الله بفقهه وعلمه، وقد قال الشيطان لعبد القادر: لقد أضللت بهذا خلقاً كثيراً. يعني ممن ليس له قدم راسخة في العلم والفقه.

---

(١) الشلوخ عبارة عن علامات في الوجه نتيجة فصد الوجه وهو للرجال خاصة للتمييز بين القبائل وهو أنواع، فشلوخ قبيلة الشايقية (☰) في كل خد.

(٢) السديري بذلة يلبسها الناس في شرق السودان وتعرف بالصِّديرى (عامية عربية) وفي الفصحى الصِّدار وهو ثوب يغطى به الصَّدر.

أما رؤياه مناماً فهي من المبشرات إذا توفر شرطها، ومما تجدر الإشارة إليه أن الرؤيا المنامية لا يبنى عليها حكم شرعي مهما كان الرائي لها إلا إذا وافقت الشرع ولكن يمكن أن يستأنس بها.

ولله در القاضي حسين من علماء الشافعية عندما قال له رجل: إني رأيت الرسول ﷺ وقال لي: صوموا غداً. وكان ذلك يوم الشك الذي نهى رسول الله ﷺ عن صيامه فقال له القاضي حسين: لقد نهى رسول الله ﷺ عن صيام يوم الشك في يقظته[١].

وقد حكى صاحب الطبقات عن عدد ممن ترجم لهم أَنهم رأوا الرسول ﷺ يقظة أو مناماً، ومنهم من يزعم أنه يجتمع به ومنهم من قال إنه يراه في اليوم الواحد يقظة أَربعاً وعشرين مرة، فنقول:

قال عن تاج الدين البَهَاري البغدادي: (قدم بلاد السودان بإذن رسول الله ﷺ والشيخ عبد القادر الجيلاني)[٢]!!.

وحكى عن حسن بن حسونة: (فقال ثم قدمت على باعوضة[٣] فاختليت فيها للذكر والعبادة فجاءني الرسول ﷺ ومعه علي وقيل أبو بكر فلقنني الذكر)[٤].

وأخبر عن شرف الدين بن عبد الله العركي بن الشيخ علي بري أنه (عندما كان يقرأ في حالة الصغر يكاشف ويقول: رأيت الرسول قال: كذا وكذا)[٥].

---

(١) لمزيد من التفصيل انظر رسالة «رؤيا الرسول ﷺ يقظة ومناماً ضوابطها وشروطها» من تأليفنا.

(٢) ترجمة (٥٦) ص ١٢٧.

(٣) هي جزيرة من جزر الشيخ حسن وتقع بين جزيرتي مرنات وأم سقد وقد جاء في مدحه: (سيد بندي وسيد بعوضة) ـ انظر هامش ٣ ص ١٣٤.

(٤) ترجمة رقم (٦٦) ص ١٣٤.

(٥) ترجمة رقم (١٢٦) ص ٢٢٨.

وحكى عن رملي بن الشيخ محمد بن الشيخ إدريس: (الشيخ خوجلي يرى النبي ﷺ كل يوم أربعاً وعشرين مرة. والرؤيا يقظة). ومن العجيب أن يعلق «ود» ضيف الله على ذلك بقوله: (وهذا غير بعيد على من منحه الله تعالى ذلك)[١].

عندما تناظر العلماء في «التنباك» أمام الشيخ عجيب وحضر الشيخ إدريس بن الأرباب سأل الشيخُ عجيبُ الشيخَ إدريس عنه وهو ممن يقول بحرمته فقال له ـ أي عجيب ـ: (من راسك أو من كراسك؟ فقال له ـ أي الشيخ إدريس ـ حَرَّمه السلطانُ مصطفى ـ العثماني ـ سلطان الاصطنبول، ومذهب مالك إطاعة السلطان بالأمور التي لم يرد فيها نص من الشارع وأيضاً أخبرني رسول الله ﷺ بحرمته)[٢].

وحكى أن الحاج مكي قال لشرف الدين بن عبد الله العركي وهما ذاهبان إلى الحج: (يا ود الشيخ الهبوب انقطعت خايفين فوات الحج. قال له: يا حاج مكي أبشر بالخير. البارح رأيت النبي ﷺ قاعد فوق رأس المركب وجبريل ماسك الصاري وأنْتَ يا حاج مكي تجري من هذا إلى هذا. فرقر الحاج ورقص(!!) قال فلما دخلنا مدينة الرسول ﷺ وجاءنا الأَغا، قال: أين شرف الدين ولد بري؟ قال الرسول ﷺ أمرني بإكرامه فأكرمنا غاية الإكرام. وأهل الحرمين اعتقدوا فيه وسلكوا عليه الطريق)[٣].

عندما اعترض القاضي دشين رحمه الله على الهميم في جمعه بين الأُختين واحتفاظه بأكثر من أربعة (تسعين) تحت عصمته وفسخ تلك العقود الفاسدة: (فرد الشيخ الهميم بأن الرسول قد أذن له في ذلك وأن الشيخ إدريس ود الأرباب عليم بذلك)[٤].

---

(١) ترجمة رقم (٩٤) ص ١٩١.

(٢) ترجمة رقم (٦٧) ص ٥٢.

(٣) ترجمة رقم (١٢٦) ص ٢٣١.

(٤) انظر تفاصيل القصة في ترجمة رقم (٢٠٥).

هذا قليل من كثير مما ذكره ابن ضيف الله في هذا الشأن، أما ادعاء حضور الرسول ﷺ لمجالس ذكرهم وحولياتهم وموالدهم فالأدلة عليه كثيرة جداً أيضاً، منها ما ذكر في الطبقات ومنها ما لم يذكر.

فالتجانية مثلاً يعتقدون ذلك ولهذا فإنهم يفرشون في الذكر عصر الجمعة ملاءة بيضاء ويعتقدون أنَّ الرسول ﷺ يجلس في وسطها والخلفاء الأربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي على أركانها الأربعة، والختمية أيضاً يعتقدون ذلك.

يقول الدكتور أحمد محمد أحمد جلي في كتابه «طائفة الختمية»[١] تحت مبحث قول الختمية برؤية الرسول ﷺ ولقياه والتلقي منه: (وفقاً لتصورهم لذات الرسول ﷺ فقد ذهب الختمية إلى أنهم يرون الرسول ﷺ ويلقونه ويحضر احتفالاتهم بمولده ﷺ، وأنهم يتلقون منه وتلقوا كثيراً من أسس الطريقة وأورادها وتعاليمها. فيذهب الشيخ محمد عثمان (الختم) إلى أنه وضع راتبه بإذن من الرسول ﷺ: «إننا لم نضع شيئاً منه إلا بإذن إلهي وسر محمدي وكل ترتيبه كذلك... حتى أني كنتُ أكتب نبياً رسولاً، فقال لي المصطفى نبياً ورسولاً»[٢] ويذهب إلى أن الرسول ﷺ هو الذي أمره أن يصنف مولداً وأن يجعل إحدى قافيتيه هاءاً والأُخرى نوناً، وبشره بأنه يحضر قراءته وأن الدعاء مستجاب في ختمه وعند ذكر ولادته ﷺ[٣]، ويدعي أن الرسول ﷺ أخبره بلزوم التمسك بطريقته لكل من وقف عليها: «اعلموا معشر الإخوان... أنه أخبرني المصطفى أن من وقف على طريقتي ولم يتمسك بها فهو

---

(١) ص ٨٦ ـ ٩١.
(٢) شرح الراتب المسمى بالأسرار المترادفة (محمد عثمان الميرغني) ضمن (مجموعة النفحات الربانية) ص ٩٥.
(٣) مولد النبي المسمى بالأسرار الربانية (محمد عثمان الميرغني) ط ١، المكتبة الإسلامية، الخرطوم، ص ١٢/ ١٣.

محروم، ومن تمسك بها وتركها يخشى عليه سوء الخاتمة فمن رأيتموه تمسك بها ثم تركها فلا تظنوا فيه خيراً ولو رأيتموه طائراً»[١].

ويزعم أنه حينما هَمَّ بتأليف «مجموع فتح الرسول» استأذن الرسول ﷺ في تأليفها فأذن له، ووعده بقبول الناس لها وقبولها منهم «ثم أردتُ هذا الجمع على نسق ما ذكرت آنفاً، فدخلت الحجرة ووقفت بين يدي المصطفى ﷺ واستأذنته في ذلك الصفا فأذن وأمد بسر بالمقصود وقا فبدأت بالخطبة ثم إلى قولي بهية، وتركتها بائتة تحت الستر ليلة هنية، وسألت منها قبولها عني، ومن الزهراء والصاحبين وقبول الناس لها وقبولها منهم، فجاد بلامَيْن وأفاد أن بها يحصل سر الفتح والقرب منه في الدارين، وأنبأ بما لا تسعه قلوب السامعين»[٢].
ويقول في كتابه تاج التفاسير عند تفسير الآية ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[٣] يقول: لما وصلت في التفسير إلى هذا الموضع رأيت في تلك الليلة المصطفى ﷺ في محفل من الرسل الكرام، ويقول لي الأنبياء من نوري، وطارت نقطة نور منه فتخلق منها صورة سيدنا إسماعيل الذبيح فقال لي: هكذا خُلِقُوا من نوري والأولياء من نور الختم!!.. ثم رأيته الليلة.. فقال لي ﷺ ما قام بأمر الله والمؤمنين أحد بعدي مثلك، شكر الله سعيك، فقلت: كيف يا رسول الله؟ فقال: تعبتَ في المؤمنين ونصحتَهم ما تعب فيهم أَحد بعدي مثلك. فقلت له: أأرضاك ذلك؟ قال: أرضاني وأرضى ا لله من فوق سبع سنوات وعرشه وحجبه، ثم نادى رضوان فقال: يا رضوان عَمِّر جِناناً ومساكن لابني محمد عثمان وأبنائه وصحبه وأتباعه وأتباع أَتباعه إِلى يوم القيامة، ثم قال: يا مالك فَحَضَر فقال: عَمِّرْ في النار

(١) شرح الراتب ص ١١٢.
(٢) مقدمة مجموعة فتح الرسول، ص ٨.
(٣) سورة الأنعام آية ١٢٢.

مواضع لأعداء محمد عثمان إلى يوم القيامة[١]. ويقول في كتاب مجموعة الفتح: «لما كان ليلة الأحد أُدخلتُ آخر الليل إلى الحجرة الفاخرة ووقفت بين يدي الحبيب وقال لي في تلك الليلة: أَنتَ محبوبي وأَنتَ مطلوبي وأنت مرغوبي ـ وأشار أن في أتباعي ما ينوف عن أَلف يكونون من أكابر المقربين»[٢] ويذكر أن الرسول ﷺ حضَر أثناء قراءته المولد فيقول كان يوم الجمعة يوم ثلاثة وعشرين من رجب الذي فيه الأَنوار تنصب، كنت في قراءة المولد فحضر صاحبه ﷺ ومعه جمع من أهل منصبه، فبشرني بأن عشرة من الذرية يكونون ورثة الكبار من الذروة النبوية، منهم الثمانية الظاهرون له في السموات في المعراج[٣]، ونوح والمرقى لكل في علو الأدراج، وأَلف من الصحب يكونون في الجوار في أعلا الجنان مع الأنبياء من جواره وذلك أكبر امتنان»[٤].

والقول برؤية الرسول ﷺ في المنام حق لا شك فيها ويمكن تحققها لبعض الصالحين، لما ورد من الأحاديث الصحيحة التي بين فيها صلوات الله وسلامه عليه ذلك ووضح أن الشيطان لا يتمثل به ومن ثم فمن رآه في المنام فقد رآه حقاً. ومن ذلك ما رواه أنس رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: من رآني في المنام فقد رآني فإن الشيطان لا يتمثل بي ورؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة[٥].

وما رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: «من رآني فقد رأى الحق فإن الشيطان لا يتكونني»[٦].

---

(١) تاج التفاسير (محمد عثمان الميرغني) جـ ١/ ص ١٤٦.

(٢) مجموعة فتح الرسول ص ١٣٧.

(٣) هم آدم ويحيى وعيسى ويوسف وإدريس وهارون وموسى وإبراهيم ـ انظر المولد... ص ٤٦/ ٤٧.

(٤) النفحات المكية ص ٥٥.

(٥) صحيح البخاري كتاب التعبير ـ باب من رأى النبي ﷺ في المنام جـ ٨، ص ٧١ ـ ٧٢.

(٦) كتاب الإيمان جـ ١، ص ٧٢.

وأما رؤيته ﷺ بعد موته يقظة، فلم يقل بها أحد من أهل السُّنة والجماعة، ومن ثم فإن مزاعم بعض الصوفية أنهم يرون الرسول ﷺ عياناً لا أساس له، ومن زعم أنه رأى ما يوهم ذلك فليعلم أنه من تلبيس الشيطان ولا ينطبق عليه «فإن الشيطان لا يتمثل بي» وفي ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «من رآني في المنام فقد رآني حقاً فإن الشيطان لا يتمثل في صورتي»[١] فهذا في رؤية المنام لأن الرؤية في المنام تكون حقاً وتكون من الشيطان، فمنعه الله أن يتمثل به في المنام، وأما في اليقظة فلا يراه أحد بعينه في الدنيا. فمن ظن أن المرئي هو الميت فقد أُتي من جهله، ولهذا لم يقع مثل هذا لأحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وبعض من رأى هذا أو صدق من قال أنه رآه، اعتقد أَن الشخص الواحد يكون بمكانين في حالة واحدة فخالف صريح المعقول، ومنهم من يقول إن هذا رفيقه ذلك المرئي (أي قرينه وشبحه) أو هذه روحانيته أو هذا معناه تشكل، ولا يعرفون أَنه جني تصور بصورته، ومنهم من يظن أنه ملك، والملك يتميز عن الجني بأمور كثيرة، والشياطين يوالون من يفعل ما يحبونه من الشرك والفسوق والعصيان، فتارة يخبرونه ببعض الأمور الغائبة ليكاشف بها، وتارة يؤذون من يريد أذاه بقتل أو تمريض ونحو ذلك، وتارة يجلبون له من يريد من الإنس، وتارة يسرقون له ما يسرقون من أموال الناس من نقد وطعام وثياب وغير ذلك، فيعتقد أنها من كرامات الأولياء وإنما يكون مسروقاً. وتارة يحملونه في الهواء فيذهبون به إلى مكان بعيد، فمنهم من يذهبون به إلى مكة عشية عرفة ويعودون به فيعتقد هذا كرامة مع أنه لم يحج حج المسلمين: لا أحرم ولا لبى ولا طاف بالبيت ولا بين الصفا والمروة، ومعلوم إن هذا من أعظم الضلال)[٢].

---

(١) صحيح مسلم كتاب الرؤيا، باب قول النبي ﷺ: «من رآني في المنام فقد رآني»، مجلد٤ ص ٤٥٢ حديث رقم ٢٢٦٨.

(٢) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة (ابن تيمية) ص ٢٩/ ٣٠.

وقد بيَّن القرآن الكريم وسُنة الرسول ﷺ أن اتصال الرسول بالناس قد انقطع بوفاته وأنه لا صلة له بالناس بعد أنْ أدى رسالة ربه وتوفاه الله تعالى. فقد روى ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «إنكم تحشرون حفاة عراة غرلاً ثم قرأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾[1] وأول من يكسى يوم القيامة إبراهيم، وإن أناساً من أصحابي يؤخذ بهم ذات الشمال فأقول: أصحابي أصحابي، فيقال: إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم، فأقول كما قال العبد الصالح: «وكنتُ عليهم شهيداً ما دمتُ فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم»[2] وقال الألوسي: «ومعنى الجملتين أني ما دمت فيهم كنت مشاهداً لأحوالهم فيمكن لي بيانها فلما توفيتني كنت أنت المشاهد لذلك لا غيرك فلا أعلم حالهم ولا يمكنني بيانها»[3].

وعليه فإن ما يدعيه بعض الصوفية، كالختمية، من أنهم يتلقون علوماً ومعارف عن النبي ﷺ بعد موته يقظة في الدنيا، ليس من النبي ﷺ وإنما هو من تخييل الشيطان وتوهيمه ـ ويذكر ابن تيمية أن الصحابة رضوان الله عليهم لم يطمع الشيطان أن يضلهم كما أضل غيرهم من أهل البدع الذين تأولوا القرآن على غير تأويله، أو جهلوا السُّنة، أو رأوا وسمعوا أموراً من الخوارق فظنوها من جنس آيات الأنبياء والصالحين وكانت من أفعال الشياطين. فأهل الهند يرون من يعظمونه من شيوخهم الكفار وغيرهم، والنصارى يرون من يعظمونه من الأنبياء والحواريين وغيرهم، والضلال من أهل القبلة يرون من يعظمونه، إما النبي وإما غيره من الأنبياء يقظة، ويخاطبهم ويخاطبونه، وقد يستفتونه ويسألونه عن أحاديث فيجيبهم، ومنهم من يخيل إليه أنَّ الحجرة قد

---

(١) سورة الأنبياء: ١٠٤.
(٢) صحيح البخاري كتاب الأنبياء باب قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ ج ٤، ص ١٠٨.
(٣) روح المعاني (الألوسي)، ج ٧، ص ٦٩.

انشقت وخرج منها النبي ﷺ وعانقه هو وصاحباه، وهذا وأمثاله أعرفُ ممن وقع له هذا وأشباهه عدداً كثيراً. وقد حدثني بما وقع له في ذلك، وبما أخبره به غيره من الصادقين من يطول هذا الموضع بذكرهم. ولكن كثيراً من الناس يكذب بهذا، وكثيراً منهم إذا صدق به يظن أنه من الآيات الإلهية، وإن الذي رأى ذلك رآه لصلاحه ودينه، ولم يعلم أنه من الشيطان، وأنه بحسب قلة علم الرجل يضله الشيطان»[١].

ولهذا فإننا نرى الختمية يقفون وهم يقرأون المولد ليلة الاثنين والجمعة إذا وصلوا في مكان معين منه هو قولهم: مرحباً يا مرحباً بالمصطفى... لاعتقادهم أن الرسول ﷺ يحضر عند ذلك، ومن طريف ما يذكر في هذا المقام أن أحد الخلفاء سابقاً وهو الشيخ سيد أحمد حاج عثمان رحمه الله في ذات مرة رفض أنْ يقف فأمروه بالقيام فلم يقم، ثم قال لهم: أين هو؟ أنا لم أره؟ ونتج عن هذا الموقف أنْ تخلى عنهم وانتمى إلى جماعة أنصار السُّنة ببور سودان حيث كان في انتمائه لهم خير كثير فقد كان له فضل كبير بعد الله عز وجل في نشر العلم الشرعي بينهم، وكان يقوم بتدريس كثير من العلوم الشرعية لهم بل كان عندما يأتي إلى مكة يدرس في الحرم المكي الأصول وغيرها نحو شرح الورقات علماً بأنه كان يعمل حائكاً للملابس.

وقال شيخ الإسلام[٢] وقد سئل عن من يقول: إن بعض المشايخ إذا أقام السماع يحضره رجال الغيب، وينشق السقف والحيطان، وتتنزل الملائكة ترقص معهم، أو عليهم، وفيهم من يعتقد أن النبي ﷺ يحضر معهم. فماذا يجب على من يعتقد هذا الاعتقاد؟ وما هي صفة رجال الغيب؟ وهل يكون التتار خفراء ولهم حال كحال خفراء أمة محمد ﷺ أم لا؟.

---

(١) مجموع الفتاوي، جـ ٢٧، ص ٣٩٠ ـ ٣٩٢ بتصرف.
(٢) جـ ١١/ ص ٦٤١ ـ ٦٤٥.

فأجاب: وأما من زعم أن الملائكة أو الأنبياء تحضر «سماع المكاء والتصدية» محبة ورغبة فيه فهو كاذب مفترٍ، بل إنما تحضره الشياطين، وهي التي تنزل عليهم، وتنفخ فيهم. كما روى الطبراني وغيره عن ابن عباس مرفوعاً إلى النبي ﷺ «أن الشيطان قال: يا رب اجعل لي بيتاً. قال: بيتك الحمام. قال: اجعل لي قرآناً. قال: قرآنك الشعر. قال: يا رب اجعل لي مؤذناً. قال: مؤذنك المزمار» وقد قال الله تعالى في كتابه مخاطباً للشيطان: ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ﴾ وقد فسر ذلك طائفة من السلف بصوت الغناء، وهو شامل له ولغيره من الأصوات المستفزة لأصحابها عن سبيل الله. وروى عن النبي ﷺ أنه قال: «إنما نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين: صوت لهو ولعب ومزامير الشيطان، وصوت لطم خدود أو شق جيوب ودعاء بدعوى الجاهلية» كقوله: والهفاه! واكبداه! وانصيراه!.

وقد كوشف جماعات من أهل المكاشفات بحضور الشياطين في مجامع السماعات الجاهلية: ذات المكاء، والتصدية وكيف يكر الشيطان عليهم حتى يتواجدوا الوجد الشيطاني، حتى أَنَّ بعضهم صار يرقص فوق رؤوس الحاضرين، ورأى بعض المشائخ المكاشفين أن شيطانه قد احتمله حتى رقص به، فلما صرخ بشيطانه هرب، وسقط ذلك الرجل.

وهذه الأمور لها أسرار وحقائق لا يشهدها إلاَّ أهل البصائر الإيمائية، والمشاهد الإيقانية، ولكن من اتبع ما جاءت به الشريعة وأعرض عن سبيل المبتدعة فقد حصل له الهدى وخير الدنيا والآخرة. وإن لم يعرف حقائق الأمور بمنزلة من سلك السبيل إلى مكة خلف الدليل الهادي فإنه يصل إلى مقصوده ويجد الماء والزاد في مواطنه، وإن لم يعرف كيف يحصل ذلك وسببه. ومن سلك خلف غير الدليل الهادي كان ضالاً عن الطريق فإما أن يهلك، وإما أن يشقى مدة ثم يعود إلى الطريق.

و«الدليل الهادي» هو الرسول الذي بعثه الله إلى الناس بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً وهادياً إلى صراط مستقيم صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض.

وآثار الشيطان تظهر في أهل السماع الجاهلي: مثل الإزباد والإرغاء، والصراخات المنكرة، ونحو ذلك مما يضارع أهل الصرع الذين يصرعهم الشيطان، ولذلك يجدون في نفوسهم من ثوران مراد الشيطان بحسب الصوت: إما وجد في الهوى المذموم، وإما غضب وعدوان على من هو مظلوم، وإما لطم وشق ثياب وصياح كصياح المحزون المحروم، إلى غير ذلك من الآثار الشيطانية التي تعتري أهل الاجتماع على شرب الخمر إذا سكروا بها فإن السكر بالأصوات المطربة قد يصير من جنس السكر بالأشربة المطربة، فيصدهم عن ذكر الله وعن الصلاة، ويمنع قلوبهم حلاوة القرآن، وفهم معانيه، واتباعه، فيصيرون مضارعين للذين يشترون لهو الحديث ليضلوا عن سبيل الله، ويوقع بينهم العداوة والبغضاء، حتى يقتل بعضهم بعضاً بأحواله الفاسدة الشيطانية. كما يقتل العائن من أصابه بعينه.

ولهذا قال من قال من العلماء: إن هؤلاء يجب عليهم القود والدية والقصاص، إذا عرف أنهم قتلوا بالأحوال الشيطانية الفاسدة، لأنهم ظالمون، وهم إنما يغتبطون بما ينفذونه من مراداتهم المحرمة. كما يغتبط الظلمة المسلطون.

ومن هذا الجنس حال خفراء الكافرين، والمبتدعين والظالمين، فإنهم قد يكون لهم زهد وعبادة وهمة، كما يكون للمشركين، وأهل الكتاب، وكما كان للخوارج المارقين الذين قال فيهم النبي ﷺ: «يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، وقراءته مع قراءتهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية. أينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن في قتلهم أجراً عند الله لمن قتلهم يوم القيامة».

وقد يكون لهم مع ذلك أحوال باطنة، كما يكون لهم ملكة ظاهرة، فإن سلطان الباطن معناه السلطان الظاهر. ولا يكون من أولياء الله إلا من كان من الذين آمنوا وكانوا يتقون. وما فعلوه من الإعانة على الظلم فهم يستحقون العقاب عليه بقدر الذنب، وباب القدرة، والتمكن باطناً وظاهراً ليس مستلزماً لولاية الله تعالى، بل قد يكون ولي الله متمكناً ذا سلطان وقد يكون مستضعفاً إلى أن ينصره الله، وقد يكون مسلطاً إلى أن ينتقم الله منه، فخفراء التتار في الباطن من جنس التتار في الظاهر. هؤلاء في العباد بمنزلة هؤلاء في الأجناد.

وأما الغلبة فإن الله تعالى قد يديل الكافرين على المؤمنين تارة، كما يديل المؤمنين على الكافرين. كما كان يكون لأصحاب النبي ﷺ مع عدوهم، لكن العاقبة للمتقين، فإن الله يقول: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾.

وإذا كان في المسلمين ضعفاً، وكان عدوهم مستظهراً عليهم كان ذلك بسبب ذنوبهم وخطاياهم، إما لتفريطهم في أداء الواجبات باطناً وظاهراً، وإما لعدوانهم بتعدي الحدود باطناً وظاهراً. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟﴾ وقال تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَـٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾.

الوقفة الثانية عشرة

حكم التوسل بالرسول ﷺ وبالصالحين، الأحياء منهم والميتين:

نوعا التوسل: المشروع والممنوع:

من المعلوم من الدين ضرورة أن التوسل نوعان، مشروع وممنوع، فالتوسل المشروع هو ما كان بطريق من هذه الطرق:

١ ـ التوسل بأي اسم من أسماء الله عز وجل وبأي صفة من صفاته العلا، كأن يسأل العبد الله فيقول: يا رب يا حي يا قيوم يا رحمن الدنيا والآخرة.. ونحو ذلك.

٢ ـ التوسل بالأعمال الصالحة وهو المعني بقوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾[1] فالوسيلة هنا هي الأعمال الصالحة ولهذا توسل الثلاثة الذين دخلوا الغار فانسد عليهم كل واحد منهم بأرجى عمل عنده كما جاء في الصحيح، فأحدهم توسل ببره بوالديه وكان باراً بهما، والثاني توسل إلى الله عز وجل بامتناعه عن ارتكاب فاحشة الزنا وقد قدر على ذلك وَمُكِّن منها، والثالث توسل إلى الله عز وجل برده الحقوق إلى أهلها كاملة من غير نقصان.

فما كان من الصخرة إلا أن ارتفعت رويداً رويداً حتى خرجوا يمشون بعد أن يئسوا من الحياة واستسلموا للموت.

---

(١) المائدة: ٣٥.

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غار فدخلوه فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار، فقالوا[1]: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم...» الحديث[2].

٣ ـ التوسل بطلب الدعاء من الحي الحاضر ودليل ذلك توسل عمر وطلبه من العباس أن يؤمهم في صلاة الاستسقاء ويدعو الله لهم. فخرج ومعه عمر وعدد من الصحابة يستسقون فسقوا، وجاء في دعاء العباس رضي الله عنه: اللهم ما نزل بلاء إلاّ بمعصية وما رفع إلا بتوبة..

وكذلك توسل الأعمى بدعاء رسول الله ﷺ كما جاء في حديث عثمان بن حنيف حيث طلب رسول الله ﷺ من الأعمى أن يتوضأ ويصلي ركعتين ويقول «اللهم شفعه فِيّ» وهذه الحادثة من أقوى الأدلة على عدم جواز التوسل بذات وجاه الميت ولو كان سيد الخلق محمداً ﷺ، وهو أفضل الخلق حياً وميتاً بأبي هو وأمي.

ومن الأدلة على جواز التوسل بدعاء الحي الحاضر استسقاء معاوية رضي الله عنه وأرضاه بالتابعي الجليل يزيد بن الأسود رحمه الله وسقيا الله لهم.

وليس وراء هذه الطرق إلا التوسل الممنوع شرعاً وهو التوسل بذات وجاه الأحياء والأموات ـ من باب أولى ـ من الرسل والصالحين مهما كان جاههم ومهما كانت منزلتهم عند الله عز وجل.

ولو كان التوسل بذات النبي ﷺ أو بجاهه جائزاً لفعله الصحابة والتابعون فهم أعلم بقدره وأدرى بمنزلته عند الله عز وجل ممن جاء بعدهم.

---

(١) قال بعضهم لبعض.

(٢) متفق عليه، مسلم رقم ٢٧٤٣.

وعندما قال رجل لرسول الله ﷺ: ما شاء الله وشئت. غضب غضباً شديداً وقال: «أجعلتني لله نداً؟ قل ما شاء الله وحده» أو ما شاء الله ثم شئت.

وعليه نعلم أن كل ما حكي من توسل بجاه رسول الله ﷺ أو بذاته، أو بذوات وجاه الصالحين الأحياء منهم والميتين في كتاب الطبقات فهو مردود غير مشروع لا ينبغي الاعتداد به ولا الاعتماد عليه في جواز التوسل بجاه وذوات الأنبياء والصالحين.

وإليك بعض النماذج مما جاء في الطبقات من هذا النوع من التوسل الممنوع، ولا تغتر أخي الكريم بحصول الإجابة لمن توسل بذلك فالكريم الرحيم يجيب دعوة المضطرين ولو كانوا كافرين، واعلم كذلك أن إجابة الدعوة ليست دائماً دليل صلاح وقبول، فقد استجاب الله دعاء إبليس لعنه الله حين دعا فقال: ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ الآية[١] استدراجاً له وفتنة لمن يتبعه من الغاوين. وكذلك الأمر بالنسبة للمسيح الدجال عندما يدعو يستجاب له في الحال.

فكم من عبد صالح تتأخر إجابة دعائه إكراماً له، وكم من مبتدع وفاسق يعجل بدعائه استدراجاً له ولأمثاله.

واعلم أخي الحبيب أن داعي الله لا يخيب رجاؤه أبداً، فإما أن يستجاب له في الحال، وإما أن يصرف عنه بلاء آخر، وإما أَنْ يدخرَ له الأجر والثواب يوم القيامة.

وقد ساءني جداً تحدي الشيخ أبي زيد محمد حمزة لعلي زين العابدين في المناظرة التي أجروها في التلفزيون السوداني في عقد السبعينات عندما ألقى شيخ أبو زيد عصاه وطلب من علي زين العابدين

---

(١) الحجر: ٣٦ ـ ٣٨.

أَنْ يسألَ أَحد الشيوخ أن يقلبها شيئاً إن كانت لهم قدرة وتصرف فما كان من علي زين العابدين إلا أن ألقى عصاه وقال للشيخ أبي زيد: اسأل الله أن يقلبها كذا. أو كما قالا.

وفي اعتقادي أن كلاً من الشيخين كان مخطئاً في ناحية.

الشيخ أبو زيد خطأه في دخوله ابتداءاً في مناظرة مع شخص لا تجمعه معه ثوابت وقواعد للمناظرة لأن البون بين السني والصوفي أو الرافضي شاسع جداً، ثم في تحديه لعلي زين العابدين لأنه يعتقد في الشيوخ أنهم ينفعون ويضرون ويعلمون الغيب وقد قال الله عز وجل: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[1] وهذا ما حدث من علي زين العابدين فظاهر قوله هذا فيه تحد لله عز وجل مع العلم أن الله لا يجب عليه أن يجيب دعاء كل من دعاه في الحال لحكمة يعلمها هو.

ولهذا عندما طلب مني بعض الإخوة أَنْ أذهبَ إلى الترابي وأناقشه في الضلالات التي جاء بها أو أن يعقد بيني وبينه مناظرة رفضت ولا زلت أرفض لسببين:

الأول: أن ما جاء به الترابي من مخالفات للشرع بينة ولما هو معلوم من الدين بالضرورة، مثل إباحته وتشجيعه للمسلم أن يرتد عن دين الإسلام بحيث لا يقال له مرتد وإنكاره لحد الردة بحيث قال: «لو كان سلمان رشدي عندنا لما حكمنا بردته» ورفعه الكفر عن اليهود والنصارى، وتشكيكه في عصمة الأنبياء، وعدالة الصحابة وغير ذلك من الطامات التي صدرت عنه، كل ذلك ليس قابلاً للمناقشة. وإنما يطلب منه أن يرجع عن ذلك ويتوب ويعلن توبته على الملأ مفصلة كما أعلن ونشر ضلالاته السالفة الذكر ولا تقبل له توبة سراً كما قال عز وجل: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟

---

(١) الأنعام: ١٠٨.

وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ﴾[١] لأنه مبتدع متبوع وحاله تخالف حال من اقترف شيئاً من المخالفات فإنه يتوب ويرجع إلى الله ولا يطلب منه أن يعلن ذلك بل نهي عن إعلانه كما جاء في الحديث «كل أمتي معافى إلا المجاهرين».

الثاني: لا يجمعني مع الترابي شيء سوى أنه من بني آدم - هذا إذا رجع عن اعتقاده بصحة نظرية دارون أن الإنسان أصله قرد، حيث زعم أن من الأفضل للإنسان أَنْ يكونَ أَصله قرداً من أن يكون تراباً - وإن لم يرجع عن ذلك ويعلنه فلا يجمعني معه شيء سوى أنه سوداني! فكيف يمكن لي مناظرته؟!

نماذج لما جاء في كتاب الطبقات من التوسل الممنوع:

يقول صاحب الطبقات عن بلال بن الفقيه محمد بن الشيخ الزين: (وكان صاحب دعوة مستجابة ما دعا على أحد أساء إليه[٢] عند قبر أبواته إلا هلك سريعاً، ويحكى أَنَّ بَقُّوي ولد عجيب غصب بقراً هول[٣] الفقيه أبو الحسن ولحقوه في ولد بان النقاء وامتنع من الرد. وقال له: يا بلال زِيِّن لامِن[٤] يرجع. فدخل في قبة الشيخ الزين وقال لهم: إن كنت ما فيَّ فايدة ماسك لكم العَقَاب، بَقُّوي يقول لي يا بلال زين لا من يرجع، ويقول لولد بان النقا يا سيدي؟ قال الفقيه محمد المِرِق: سمعت قبر الأزرق قال كَعْ كَعْ وأما بَقُّوي مشى ما رجع. قيل إِنه قُتِل في قتال جَعَل مع العجيل)[٥].

والمحظور الشرعي في قوله: ما دعا على أحد أساء إليه عند قبر أبواته إلاَّ هلك!!.

---

(١) البقرة: ١٦٠.

(٢) أين العفو والصفح؟

(٣) أي مِلْك.

(٤) أي إلى أن يرجع.

(٥) ترجمة رقم (٥٠) ص ١٢٤.

وفي قوله: دخل قبة الشيخ الزين.

إذ الدعاء عند القبر ممنوع شرعاً، فالميت يحتاج إلى الدعاء وإلى الاستغفار أما أنْ تُطلب منه الحاجات فهذا من عمل عباد الأوثان وليس هو من سمات عباد الرحمن.

وقال عن جميل بن محمد مادحاً له: (وكان مجاب الدعوة حياً وميتاً)[١]، وإجابة الدعاء وحدها ليست دليل صلاح، وإذا أقررنا أنه كان مجاب الدعوة حياً فكيف وهو ميت؟ سيما ودعاء الأموات والتوسل بالجاه والذات غير مشروع بل هو ممنوع، لأنه وسيلة شركية تخرج صاحبها من دائرة الإيمان إلى دائرة الكفر والشرك.

يقول محمد نور بن ضيف عن كثير ممن ترجم لهم: (وقبره كعبة محجوجة)[٢] والرسول ﷺ سأل الله عز وجل ألا يجعل قبره عيداً، وقد استجاب الله دعاءه، ولهذا دفن في حجرة عائشة رضي الله عنها.

وقال في ترجمة عووضة بن عمر شكال القارح[٣]: (وأخبرني الفقيه حجازي سبط الشيخ إدريس، قال أخبرني[٤] الفقيه إسماعيل بن مصطفى قال: كان في ضنقلة رجلاً غنياً وعنده امرأة عاقر قاطعة من الحيض، فإذا جاء شهر الحيض تلطخ ثديها بدم جدادة[٥] فقالت لزوجها: وديني للشيخ عووضة يديني جنى[٦](!!) عندها قدحاً ملته فطير قمح، وحمام ودجاج وشيلته فرختها وقال لها: تديني فرختك واسورتك

---

(١) ترجمة رقم (٦٢) ص ١٣١.

(٢) انظر مثلاً الترجمة رقم (٢٠٥) ص ٣٢٢.

(٣) ترجمة رقم (١٦٣) ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤.

(٤) من أسند فقد أحال كما يقول المحدثون ولكن إذا كان السند إلى مجاهيل فكيف تعرف الحقيقة؟

(٥) هي بالعامية السودانية فإنهم يقدمون الجيم على الدال والصواب دجاجة.

(٦) يعطيني ولداً.

وحجولك؟ فقالت له: خير. فقال لهما ارقدوا فوق عنقريبي. ياكل[١] في فطير القمح والدجاج واللحم. فأنكر[٢] عليه بقلبه رجل حاضر في المجلس. قال: الحضري[٣] أكَّال الرغيف يتعدَّ على أحكام الله[٤]. فقال لهما: أديتكم ولد، ثم أديتكم ولد، ثم أديتكم ولد، ثم أديتكم بنت تمسك البيت. قال عووضة: إن قال للعود اليابس ألد يلد. الراكوبة الجالس تحتها مرقها عود نخل في وقته خَضَّر وأثمر).

هل هناك مخالفة شرعية أكبر من ذلك، لو دعا لهما أن يرزقهما الله ولداً لكان معلوماً مفهوماً، أما أن يقول أعطيتكم ولداً ثم ولداً ثم ولداً ثم بنتاً كيداً وغيظاً على ذلك المعترض بقلبه؟ ومن أدراه أنه كان معترضاً؟ يا ترى لو لم يعترض هذا الرجل بقلبه هل كان سيصرف له هذا العدد من الأبناء أم كان سيكتفي بواحد؟!

(١) أي وصار يأكل.
(٢) حق لهذا الرجل أن ينكر عليه.
(٣) أي كاشفه.
(٤) أين أحكام الله، أهي في نوم امرأة على فرش رجل أجنبي!.

الوقفة الثالثة عشرة

ألقاب الصوفية مثل الغوث والقطب، هل لها أصل في الشرع؟

يطلق الصوفية على مشايخهم ألقاباً وأسماء ما أنزل الله بها من سلطان، ولم تُؤثر عن علم من الأعلام مثل لقب: الغوث، والقطب، ونحوهما.

وقد ورد في كتاب الطبقات الشيء الكثير من هذه الألقاب المحدثة، فالمعروف في الإسلام ألقاب: الشيخ، والفقيه، والعالم، والمحدِّث، والزاهد والعابد، ولم نسمع أحداً من السلف الصالح تلقب أو لُقب بغوث الزمان، أو بالقطب أو الوتد، ونحو ذلك، وما لم يكن في ذلك اليوم ديناً فلن يكون اليوم ديناً.

ومما ورد في الطبقات من هذه الألقاب:

قال عن لقاني خال الشيخ حسن ود حسونة: (تفقه على الشيخ عبد الرحمن بن جابر فهو أحد التلامذة الأربعين الذين بلغوا درجة القطبية في العلم والدين)[١].

وحكى عن محمد قيلي أنه قال: (الأولياء فيهم أوتاد، وأحبار، وأبدال، ونجبا. فكلهم خرجوا من ظهر جدي هذا)[٢].

---

(١) ترجمة رقم (٢٠٤) ص ٣١٦.

(٢) ترجمة رقم (٢٠٨) ص ٣٢٤ ـ ٣٢٥.

وقال: (وسئل الشيخ حسن ود حسونة عن مقام الشيخ موسى. قال: هو في مقام الفرد. ومقام الأفراد عند الصوفية غير القطبانية والأوتاد الأربعة، والنجبا السبعة، والأربعين البدلا فهم على عدد أهل بدر فهم للقطب بمنزلة العسكر)[١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وقد سئل عن الحديث المروي في الأبدال هل صحيح أم مقطوع؟ وهل الأبدال مخصوصون بالشام؟

فأجاب[٢]: (أما الأسماء الدائرة على ألسنة كثير من النساك والعامة مثل «الغوث» الذي بمكة و«الأوتاد الأربعة» و«الأقطاب السبعة» و«الأبدال الأربعين» و«النجباء الثلاثمائة» فهذه أسماء ليست موجودة في كتاب الله تعالى، ولا هي أيضاً مأثورة عن النبي ﷺ بإسناد صحيح ولا ضعيف يحمل عليه ألفاظ الأبدال. فقد روي فيهم حديث شامي منقطع الإسناد عن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً إلى النبي ﷺ أنه قال: «إن فيهم ـ يعني أهل الشام ـ الأبدال الأربعين رَجُلاً، كلما مات رجل أبدل الله تعالى مكانه رجلاً» ولا توجد هذه الأسماء في كلام السلف).

وكما ذكر شيخ الإسلام رحمه الله فإن كل الأحاديث التي وردت في الأبدال في إسنادها مقال، وقد خرجها الشيخ ناصر الدين الألباني وهي:

١ ـ «الأبدال أَربعون رجلاً وأَربعون امرأة كلما مات رجل أبدل الله تعالى مكانه رجلاً، وكلما ماتت امرأة أبدل الله تعالى مكانها امرأة» عن أنس ـ ضعيف[٣].

---

(١) ترجمة رقم (٢٣٢) ص ٣٥٠.

(٢) مجموع فتاوي شيخ الإسلام ابن تيمية المجلد ١١/ص ٤٣٣ والصفحات التالية لها.

(٣) ضعيف الجامع الصغير للألباني ج ١/ ٢٧٤ رقم (٢٢٦٥) والأحاديث الضعيفة رقم (٢٤٩٨).

٢ - «الأبدال بالشام وهم أربعون رجلاً، كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلاً، يسقى بهم الغيث، وينتصر بهم على الأعداء، ويصرف عن أهل الشام بهم العذاب» عن علي - ضعيف[١].

٣ - «الأبدال في أمتي ثلاثون، بهم تقوم الأرض، وبهم تمطرون وبهم تنصرون» عن عبادة بن الصامت - ضعيف[٢].

٤ - «الأبدال في أهل الشام وبهم ينصرون وبهم يرزقون» عن عوف بن مالك - ضعيف[٣].

٥ - «الأبدال في هذه الأمة ثلاثون رجلاً، قلوبهم على قلب إبراهيم خليل الرحمن، كلما مات رجل، أبدل الله مكانه رجلاً» - ضعيف[٤] عن عبادة بن الصامت.

٦ - «الأبدال من الموالي» عن عطاء مرسلاً - ضعيف[٥].

ثم قال:

(فأما لفظ الغوث والغياث فلا يستحقه إلا الله فهو غياث المستغيثين، فلا يجوز لأحد الاستغاثة بغيره، لا بِمَلَك مُقَرَّب ولا نَبِي مُرْسل ومن زعم أن أهل الأرض يرفعون حوائجهم التي يطلبون بها كشف الضر عنهم ونزول الرحمة إلى الثلاثمائة والثلاثمائة إلى السبعين،

---

(١) ضعيف الجامع الصغير للألباني ج ١/ ٢٧٥ رقم (٢٢٦٦) والأحاديث الضعيفة رقم (٢٩٩٣).

(٢) ضعيف الجامع الصغير للألباني ج ١/ ٢٧٥ رقم (٢٢٦٧) والأحاديث الضعيفة له رقم (٩٤٠).

(٣) ضعيف الجامع الصغير للألباني ج ١/ ٢٧٥ رقم (٢٢٦٨) والأحاديث الضعيفة رقم (٩٤٠).

(٤) ضعيف الجامع الصغير للألباني ج ١/ ٢٧٥ - ٢٧٦ رقم (٢٢٦٩) والأحاديث الضعيفة له رقم (٩٤٠).

(٥) ضعيف الجامع الصغير للألباني ج ١/ ٢٧٦ رقم (٢٢٧٠) والأحاديث الضعيفة رقم (١٤٧٦).

والسبعون إلى الأربعين، والأربعون إلى السبعة، والسبعة إلى الأربعة والأربعة إلى الغوث فهو كاذب ضال مشرك، فقد كان المشركون كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ وقال سبحانه وتعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾.

وأما الأوتاد: فقد يوجد في كلام البعض أنه يقول فلان من الأوتاد، يعني بذلك أن الله سبحانه وتعالى يثبت به الإيمان والدين في قلوب من يهديهم الله به، كما يثبت الأرض بأوتادها، وهذا المعنى ثابت لكل من كان بهذه الصفة من العلماء... وليس ذلك محصوراً في أربعة ولا أقل ولا أكثر.

ثم قال: وكذا لفظ خاتم الأولياء لفظ باطل لا أصل له، وأول من ذكره محمد بن علي الحكيم الترمذي، وقد انتحله طائفة كل منهم يدعي أنه خاتم الأولياء: كابن حمويه، وابن عربي، وبعض الشيوخ الضالين بدمشق وغيرها، وكل منهم يدعي أنه أفضل من النبي عليه السلام من بعض الوجوه إلى غير ذلك من الكفر والبهتان، وكل ذلك طمعاً في رياسة خاتم الأولياء لما فاتتهم رياسة خاتم الأنبياء، وقد غلطوا فإن خاتم الأنبياء إنما كان أفضلهم للأدلة الدالة على ذلك، وليس كذلك خاتم الأولياء، فإن أفضل أولياء هذه الأمة السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، وخير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر رضي الله عنه ثم عمر رضي الله عنه ثم عثمان رضي الله عنه ثم علي رضي الله عنه، وخير قرونها القرن الذي بعث فيه النبي ﷺ، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، وخاتم الأولياء في الحقيقة آخر مؤمن تقي يكون في الناس، وليس ذلك بخير الأولياء، ولا أفضلهم، بل خيرهم وأفضلهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه ثم عمر اللذان ما طلعت شمس ولا غربت على أحد بعد النبيين والمرسلين أفضل منهما)[١].

---

(١) مجموع الفتاوي مجلد ١١/ص ٤٣٣ والصفحات التي تليها.

الفصل الثاني

وقفات خاصة

ما سبق كان عبارة عن وقفات عامة لما أورده صاحب الطبقات وبيان لأحكام الشرع فيها إجمالاً، وفي هذا الفصل سنقف وقفات خاصة مع مواقف حسنة أو قبيحة لنبين حكم الشرع فيها، نُصحاً لله ولرسوله ولدينه ولعامة المسلمين، وذلك لمكانة هذه الطبقات في نفوس كثير من المسلمين في السودان وتأثرهم بها واعتمادهم عليها واستدلالهم بما ورد فيها من خوارق وحكايات.

وقبل الشروع في المقصود أود أَنْ أُنبه على الآتي:

أولاً: ليس غرضي مما سأورده في هذه الوقفات التشهير بأَحد أَو الانتقاص من مكانته، إذ هذا ليس من خلق المسلم.

ثانياً: ليس غرضي مما سأذكره الحكم على أحد بإسلام أو كفر لِأَنَّ العبرة بالخواتيم التي لا يعلمها إِلاَّ الله، وإِنما غرضي الحكم على ما ظهر من الأقوال والأعمال.

ثالثاً: لا أستطيع أَن أَجزم بصحة كل ما نسب لمن ترجم لهم، إذ قد تكون النسبة صحيحة، وقد يكون زيد في الحكاية أو نقص منها.

رابعاً: طالما أَننا سنقول لمن أخطأ أخطأت فلا بد أَنْ نقول لمن أَحسن وأَصاب أَحسنتَ وأَصبتَ، ولهذا السبب سنقف مع من أحسن وأصاب بقدر وقوفنا مع خطأ المخطئين وبدع المبتدعين.

خامساً: الدافع لنا لهذه الوقفات قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾(١).

وقوله ﷺ: «من سئل عن علم فكتمه أُلجم بلجام من نار يوم القيامة» الحديث.

وقوله عز وجل: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ﴾(٢).

فقد أمر الله سبحانه وتعالى العلماء وطلاب العلم ببيان ما اختلف فيه الناس بأن يردوا الاختلاف إلى الكتاب والسنة وما أجمعت عليه الأمة، فما وافق ذلك قبلناه وما خالفه رددناه وتركناه، وقد ذم الله المشركين الأوائل بتقليد الآباء والأجداد من غير دليل ولا حجة فقال ناعياً عليهم قولهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾(٣).

وقال: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾(٤).

---

(١) آل عمران: ١٨٧.

(٢) الشورى: ١٠.

(٣) الزخرف: ٢٣.

(٤) الصافات: ٦٩ ـ ٧١.

(أ) الوقفات المشرِّفة المشرقة:

على الرغم من أن الوقفات المشرفة في كتاب الطبقات حسب الميزان الشرعي ليست كثيرة بالنسبة لغيرها إلاَّ أَنها ناصعة مشرقة استطاعت أَنْ تبددَ كثيراً من الظلام، وأن تقضي على كثير من المخالفات، وأن تُحل السُّنة محل البدعة.

ومهما يقال عن كتاب الطبقات فَإنه لا يخلو من ومضات مضيئة، وتجليات مبدعة، سنشير في هذه الصفحات إلى أشهرها إذ ليس غرضنا ولا باستطاعتنا أن نحصي كل المواقف، حسنة أم سيئة.

وهذه المواقف الحسنة المشرفة تدل دلالة قاطعة على أنَّ هذه الأُمة المكرمة لن تجتمع على ضلالة في يوم من الأيام قط، ولن تتفق على الخطأ والباطل مهما كانت درجة الجهل، وذلك أن الإسلام هو دين الفطرة، فلا تزال طائفة من هذه الأُمة ظاهرة على الحق دائرة معه إلى أَنْ تقوم الساعة وحتى يأتيَ أمر الله وهم على ذلك، فنقول وبالله التوفيق.

الوقفة الأولى

مع الشيخ محمود العركي رحمه الله، أول من أمر الناس بالعدة في ذلك العهد:

من المواقف التي تستحق الإشادة موقف هذا الشيخ الذي رحل إلى مصر وتلقى العلم هناك على مشايخ ذلك العصر ناصر وشمس الدين اللقاني، وعندما عاد إلى السودان عمل بما علمه الله فقد أَمر النساء بالعدة بعد الطلاق وبعد الوفاة، إذ كانت المرأة قبل ذلك كما قال ود ضيف الله تُطَلَّق وفي نفس اليوم تُزَوَّج من رجل آخر.

قال محمد نور بن ضيف الله: (وهو أول من أمر الناس بالعدة، وكانت المرأة قبله يطلقها زوجها ويزوجوها في يومها أو ثانيه وسكن في جزيرة الهوي[(١)] في بحر أبيض وبني له قصر[(٢)] الآن يعرف بقصر محمود بين الحسانية وأليس[(٣)]، وقدومه قبل أولاد جابر... في زمن[(٤)] الفونج. وقال الشيخ خوجلي: كان من الخرطوم إلى أليس سبعة عشر مدرسة وكلها خربتها شلك وأم لحم[(٥)] وتوفي في القصير)[(٦)]. هذه المدارس السبعة عشر التي خربتها الشلك أنشأها كلها عبد الله العركي بين الخرطوم والكوة.

---

(١) أو الهوج وهي أرض الجزيرة التي تقع بين النيل الأزرق والنيل الأبيض.

(٢) يقال إنَّ هذا القصر كان مبنياً في موضع مدينة القطينة الحالية، والله أعلم.

(٣) كانت مركزاً للفونج جنوب النيل الأبيض.

(٤) نشأت دولة الفونج عام ٩١٠هـ/ ١٥٠٤م.

(٥) هذه سنة (١٦٨٧ ـ ١٦٨٨م) وكانت سنة قحط شديد قتلت العديد من الحيوانات.

(٦) ترجمة رقم (٢٢٦) ص ٣٤٤.

تنبيه: عدة المطلقة التي تحيض ثلاثة قروء، والمطلقة التي لا تحيض إما لصغر أو كبر ثلاثة أشهر وعدة الحامل أن تضع حملها. أما المتوفى عنها زوجها فعدتها أربعة أشهر وعشراً ما لم تكن حاملاً فإن كانت حاملاً فتحل بوضع حملها وإن كان زوجها على سرير الموت لم يدفن بعد.

وأما الأَمة فعدة طلاقها قرءآن لمن تحيض وشهران لمن لا تحيض أَو انقطع حيضها، وأما الحامل فبوضع حملها، أما عدتها من الوفاة فعلى النصف من عدة الحرة شهران وخمسة أيام، وإن كانت حاملاً فبوضع حملها.

والمراد بالرق الرق الشرعي الذي سببه الكفر، وقد عرفه العلماء بأنه عجز حكمي سببه الكفر، وهو أن يخرج المسلمون لجهاد الطلب يطلبون من الكفار الدخول في الإسلام، فمن قبل الإسلام فبها فنعمت، ومن رفض الإسلام إن كان كافراً كتابياً يهودياً أو نصرانياً فتؤخذ منه الجزية فإن رفض الإسلام والجزية قوتل فإن قُتل فهو في النار وإن أُسر فهو رقيق يُملك، وإن أسلم بعد ذلك لم يزل رقه إلا أن يعتق أو يشتري حريته.

وإن كان غير كتابي فلا يقبل منه إلاَّ الإسلام أَو السيف فإن قتل فهو في التار وإن أسر فهو رقيق.

أما الرق الاجتماعي الذي سببه الظلم الاجتماعي واللون فلا اعتبار له، وقد جاء في الأثر «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً» فمن ملك شخصاً بهذه الطريقة فهو عاصٍ وليستعد لمخاصمة الله عز وجل ورسوله ﷺ له يوم القيامة.

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾[1]

---

(١) الطلاق: ٤.

وقال تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾[١] وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾[٢].

أما إذا عَقَد الرَّجُلُ على المرأة وطلَّقها قَبْلَ الدخول بها فليس له عليها من عدة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾[٣].

---

(١) البقرة: ٢٢٨.

(٢) البقرة: ٢٤٤.

(٣) الأحزاب: ٤٩.

الوقفة الثانية

مع قاضي العدالة دشين[١] وفسخه لأنكحة ابن عبد الصادق الباطلة:

اسمه دشين، ولقبه قاضي العدالة، لفسخه نكاح محمد الهميم بن عبد الصادق الذي جمع بين أختين وزيادة، وهو بِصِيلي من ذرية حماد البصيلي فرع من جهينة هاجر من صعيد مصر[٢]، وهو جد محمد بن مدني الذي تنسب إليه مدينة مدني.

ولد رحمه الله بمدينة أربجي وكان شافعي المذهب، وهو أحد القضاة الأربعة الذين عينهم الشيخ عجيب المانجلك بأمر الملك دَكِين بن نايل خامس سلاطين الفونج (٩٧٦هـ ـ ٩٩٤هـ)، والقضاة الأَربعة هم: الشيخ عبد الله العركي، والشيخ عبد الرحمن بن مسيخ النويري، والفقيه بقدوش بن سرور الجمُّوعي على دار الجموعية، والقاضي دشين على أربجي وجميع الشافعية في السلطنة.

وسبب تلقيبه بقاضي العدالة كما قال صاحب الطبقات: (لأنه فسخ نكاح الشيخ محمد الهميم. وذلك أنه في حالة الجذب الإلهي[٣] زاد في نكاحه من النساء على القدر الشرعي وهو أربعة، وجمع بين الأختين، وتزوج بنات أبو ندودة الاثنتين في رفاعة، وجمع بين بنات

(١) انظر هامش (٤) ص ٢١٢.

(٢) انظر ترجمة رقم (١٠٢) ص ٢١٢.

(٣) هذا عذر أقبح من الذنب.

الشيخ بَانَ النَّقا الضرير: كلثوم، وخادم الله. فأنكر عليه القاضي دشين حين قدم الشيخ الهميم وحضر صلاة الجمعة بأربجي[١]. فلما أراد الخروج من الجامع قبض دشين لجام الفرس وقال له: خَمَّسْتَ وَسَدَّسْتَ وَسَبَّعْتَ في الناس ما كفاك حتى جمعتَ بين الأختين. فقال له: ما تريد بذلك؟ قال: أُريد أَنْ أَفسخ نكاحك، لأنك خالفت كتاب الله وسُنة رسوله ﷺ. فقال له: الرسول أذن لي، الشيخ إدريس بيعلم. وكان الشيخ إدريس حاضر. فقال الشيخ إدريس لدشين: اترك أمره وخلِّه ما بينه وبين ربه. فقال دشين: ما بهمل أمره وقد فسخت نكاحه. فقال الشيخ الهميم لدشين: فسخ الله جلدك. فيقال[٢] إنه مرض مرضاً شديداً حتى تفسخ جلده، وما رجع عن أمره للشيخ الهميم، وما زاده ذلك إلاَّ يقيناً. فمن أجل هذا سمي قاضي العدالة، وقد قال الشيخ فرح ولد تكتوك فيه:

أيـن دشـيـن قـاضـي الـعـدالـة الْـمَـا بِـمِـيـل بـالـضـلالـة

نـسـلـه نـعـم الـسـلالـة وأوقـدوا نـار الـرسـالـة

قال بروفسور يوسف فضل: (ويذكر عبد العزيز عبد المجيد[٣]: (ولكن تتمة القصة لم ترد في الطبقات وإنما هي على ألسنة الناس. فإنه يقال: إن النبي ﷺ ظهر للقاضي دشين في المنام وقال له: إن حقيقة الأختين اللتين تزوج بهما الهميم هي أن الأختين كانتا في الواقع من أُمَّيْنِ مختلفتين، وقد حملت إحدى هاتين الأمين بواحدة من الأختين سفاحاً وإذاً فلا علاقة بين هاتين الزوجتين)[٤]!!!.

وحكى صاحب الطبقات كذلك تبريراً لصنيع الشيخ الهميم أَقبح من

---

(١) لأنه كان يسكن في غابة قرب أربجي، تقع الآن بين أَربجي وأُم دِغِينة.

(٢) «يقال» عند المحدثين للتمريض، فكيف في حكايات الطبقات؟!!.

(٣) التربية في السودان جـ ١/ ٢٣٩.

(٤) هامش (١٧) ص ٢١٢ ـ ٢١٣.

التبرير السابق الذكر وهو أنَّه من الملامتية الذين يفعلون المنكرات ويظهرونها هضماً لأنفسهم(!!!) وهذا الفعل الشنيع مخالف للشرع والعقل وقد أُمرنا بالاستتار عند الابتلاء وليس بإعلان وإظهار ما ستره الله علينا.

قال: (اللوم الفعلو الشيخ محمد رضي الله عنه نسوانه يلحقن التسعين، وغصب خادماً هُولْ ناس أربجي اسمها زِريقة حسبها سرية. وأَخذ بنات الشيخ بان النقا أبو يعقوب اثنين كلثوم وخادم الله وقال له: السيد ما يمنعوه خدمه، وجمع بنات أبو ندودة في رفاعة اثنين).

يقول ذلك مستشهداً بما قاله الشعراني في طبقاته عن الشيخ الخواص: فإنه كان يسرق لباس الناس وهم في الحمام فيلبسهن تحت جبته ويقدل حتى يطلع عليه الناس ويضربوه ويأخذوها منه[١].

ما كان يفعله إبراهيم الخواص على الرغم من قبحه والله لا يساوي شيئاً بالنسبة لِمَا فعله محمد الهميم فقد جمع بين المحرمات وتحدى حدود الشرع وانتهك الفروج بغير حق.

تعليقنا على ما فعله القاضي دشين مع محمد الهميم بن عبد الصادق يتلخص في الآتي:

أولاً: أقول لقد قَصَّرَ القاضي دشين رحمه الله على الرغم من فسخه لنكاح الأختين من محمد الهميم، وكان الواجب على القاضي أَنْ يحكم برجمه لأنه لا يجوز للرجل أن يجمع تحته أكثر من أَربعة نسوة فما زاد على الأَربعة فهو زنا وحد الزاني المحصن الرجم، هذا بجانب جمعه بين الأختين وقد حرم ذلك على المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾[٢] أي في الجاهلية، وذلك في بيان ما حرم من النساء.

---

(١) المصدر السابق.
(٢) النساء: ٢٣.

ثانياً: الاعتذار لابن عبد الصادق بأن إحدى الأختين من زنا غير صحيح ولو سلمنا بأن هذا كان في الأختين اللتين من رفاعة فما بال جمعه لبنتي بان النقا كلثوم وخادم الله؟!

ثالثاً: استبعد جداً أَنْ يكون جلد القاضي قد تفسخ لأن ود ضيف الله ذكره بصيغة التمريض وما ذكره بصيغة الجزم غير موثوق به لأن كل مروياته عن حيران المشايخ وهم غير مؤتمنين لموالاتهم العمياء لشيوخهم.

ولو فُرض أَنَّ جلد القاضي دشين رحمه الله قد تفسخ فليس في ذلك كرامة لمحمد الهميم ولا إهانة للقاضي دشين وإنما يكون ذلك استدراجاً وفتنة لمحمد الهميم واختباراً وتزكية للقاضي رحمه الله، ودليل ذلك ما سيصيب ذلك المؤمن الذي يكذب المسيح الدجال فينشره بالمنشار مرتين ثم يحييه فيقول له في كل مرة: والله ما ازددت فيك إلا بصيرة، وعندما يحاول قتله للمرة الثالثة يحال بينه وبين ما يريد.

رابعاً: مما يُشكر ويُقدر للقاضي دشين ثباته كما يقول صاحب الطبقات ويقينه بما قضى وحَكَمَ لأنه الحق.

توفي القاضي دشين رحمه الله تعالى بالداخلة[١] وقبره ظاهر بها.

ألا رحم الله القاضي دشين، وكَثَّر من أَمثاله، ونسأل الله أن يكون أحد القضاة الثلاثة في الجنة.

(١) قريبة على نهر الدندر كما قال محقق الطبقات.

الوقفة الثالثة

مع الشيخ حمد بن محمد بن علي المشيخي[١]، المشهور بأمه مريم ويقول العامة «ود أم مريوم» وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر:

وُلِد الشيخ حمد بجزيرة توتي ١٠٥٥هـ وهو مَسَلَّمي الأصل، وأمه محسية مشرفية، حفظ القرآن على الشيخ أرباب الخشن المشهور «بأرباب العقائد»، وقرأ الفقه والتوحيد.

الشيخ حمد بن مريم من أَصلح وأَفضل من ترجم لهم صاحب الطبقات، إذ لم يرد في ترجمته شيء ينكر إلاَّ ما حكاه الفقيه مضوي بن عبد الغفار ـ وما أظن أن ذلك يصح عنه ـ قال: (سافرتُ معه إلى البحر الأَبيض مكث خمسة عشر يوماً بوضوء واحد لا أكل ولا شرب فيها[٢]، ولا نام، ولا توضأ حتى رجع). وأخشى ما أخشاه أن يكون هذا من مبالغات المريدين والأتباع فكما قال ابن عباس رضي الله عنهما «ويل للعالم من الأتباع» ونحن نقول: ويل ثم ويل للمشايخ من المريدين والأتباع.

ومن أفضل ما امتاز به الشيخ حمد رحمه الله ما يأتي:

أولاً: كان آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر صادعاً بالحق لا تأخذه

(١) نسبة إلى المشايخة من ذرية أبي بكر الصديق كما قال محقق الطبقات.

(٢) ترجمة رقم (٨٠) ص ١٧٣ ـ ١٨١.

في الله لومة لائم قط وإليك نماذج من أمره ونهيه، وصدق عزمه وعدم تفريقه في ذلك بين الحاكم والمحكوم، والعالم والعامي، والصِّدِيق والعدو، والقريب والبعيد، فالكل عنده سواء في هذا الشأن.

من المواقف التي تدل على صدعه بالحق وأنه لا تأخذه في ذلك لومة لائم ولا يصده عنه صاد، ولا يحول بينه وبين الحق عذل العاذلين ولا تعنيف المعنفين، موقفه مع شيخه أرباب العقائد وهجره له واعتزاله مجالسه بعد أن نبهه إلى عدم جواز صلاة أهل الفضل والصلاح على الفجرة وتاركي الصلاة والمبتدعة فلم يستجب.

يقول صاحب الطبقات: (وكان يقول[١]، أول أمرى أقوال، وثاني أمري أفعال، وثالث أمري مقاصد. فأما الأقوال فهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقد أخبرني دفع الله ابن الشيخ زين العابدين قال: سألتُ الفقيه حمد عن سبب الخلاف الواقع بينه وبين شيخه أرباب العقائد. قال: كنت خادمه وملازمه ذات يوم قلت له: يا سيدي هذا العلم الذي قرأناه مأمورين بامتثاله أم لا؟ قال: مأمورين بامتثاله. قلت له: خليل قال: «وكُره صلاة فاضلٍ على بِدْعي، أو مظهر كبيرة»[٢] قال: نعم، قلت له: ما قال في تارك الصلاة: وصلى عليه غير فاضل[٣]؟ قال: نعم. قلت له: لِمَ تصلِ عليهم؟ فترك ذلك وقتاً والناس ما هم رضيانين[٤]. قالوا له: الناس جيرانك وأقاربك، تسمع كلام حمد

---

(١) أي الشيخ حمد.

(٢) انظر مختصر خليل، فصل في وجوب غسل الميت ص ٥٦ وصوابه: «وكره... وصلاة فاضل على بدعي أو مظهر كبيرة» الطبقات ص ١٧٤ هامش (٨).

(٣) لا يجوز أن يدفن مسلم من غير صلاة عليه وتصح صلاة الجنازة بأي عدد ولو كان واحداً لأنها من فروض الكفاية، أما أهل البدع والأهواء المظهرين لبدعهم، وكذلك الفساق المجاهرين بفسقهم فَالسُّنة أَنْ يعتزلَ الصلاة عليهم أَهلُ الفضل والعلم والصلاح، وهذا الذي عناه خليل وقصده الشيخ حمد رحمهما الله.

(٤) غير راضين عن هذا التصرف.

المِشَاقِقْ[١]. فعاد كما كان فرحلتُ منهم ودخلت توتي[٢]).

هذا الموقف المشرف يدل دلالة واضحة على صدق هذا الرجل، وعلى تجرده، وعلى تمكن عقيدة الولاء والبراء في قلبه، ولا يستطيع أحد أنْ يُقَدِّر هذا الموقف حَقَّ قَدْرِه إلاَّ سوداني أو من خبرهم، وذلك لتمكن العاطفة منهم، وشدة مراعاتهم للتقاليد الاجتماعية، والعادات الموروثة، وعملهم حساباً كبيراً للعامة، خاصة في ذلك العهد الذي عاش فيه الشيخ حمد رحمه الله.

وتزداد عظمة هذا الرجل ويَجِلَّ قَدْرُه في نفسك حين تعلم أن أرباب العقائد هذا كان شيخه الذي تلقى منه القرآن والعلوم والشرعية وكان ذا قرابة ورحم به، وكان ملازماً له وخادماً له حيناً من الدهر، وعلى الرغم من ذلك حين قدم رضا الناس على السُّنة المطهرة هجره واعتزله ورحل من جواره من غير ضوضاء ولا إثارة ولا إعلان لسبب الهجر ويدل على ذلك سؤال الشيخ دفع الله ابن الشيخ زين العابدين له عن سبب الخلاف بينهما، فلو كان السبب ذائعاً لما سأله عنه.

كما أَنَّ هذا الموقف يدل دلالة بينة على حسن أَدبه، وطيب أصله، حيث نَبَّه شيخَه بِحِكْمة وموعظة حسنة وذكَّره بالدليل وانتزع منه الموافقة من غير مواجهة ولا تجريح.

هذا الموقف يذكرني بموقف شبيه له سمعته في هذه العطلة ١٤٢٠هـ عن شيخ من شيوخ الأنصار، وحافظ ومعلم للقرآن لأمد بعيد، ذلكم هو الشيخ عثمان بن سعد رحمه الله، حيث كان ملازماً للسيد عبد الرحمن المهدي في أم درمان ومدرساً للقرآن في مسجد الأنصار

---

(١) أي المشاكس أو المعاند، وهو والله ليس مشاكساً ولا معانداً ولكنه كان متبعاً السُّنة وللسلف الصالح، فقد هجر بعض الصحابة والتابعين آباءهم وأبناءهم وأقاربهم في ذات الله، ولكن آفة السودانيين في الماضي والحاضر أنهم عاطفيون ويخشون كلام الناس.

(٢) لأن أرباب العقائد كان بالخرطوم في الموضع الذي فيه مسجده الآن.

ولكن عندما علم أنَّ السيد عبد الرحمن عندما ذهب إلى بريطانيا مع السيد علي الميرغني والشريف يوسف الهندي في آخرين مهنئين للحكومة البريطانية على انتصارها في الحرب العالمية الثانية ومقدمين كل أسباب التأييد والطاعة لها، قدَّم سيف المهدي الذي قتل به غردون، المبشر النصراني لعنه الله، هدية لملك بريطانيا وكناية عن ولائه التام لهم وعلى وقف المسيرة الجهادية للأنصار، وعلى الرغم من كل ذلك فإن ملك بريطانيا استنكف أنْ يقبل السيف الذي قتل به غردون، ورده للسيد عبد الرحمن طالباً منه أن يستعين به على حماية الإنجليز في السودان[١].

عندما علم الشيخ عثمان بن سعد بذلك بعد عودة السيد عبد الرحمن قال له مخاطباً: عهد الله لا أُساكنك في بلدتك. وهجره واعتزله ثم جاء إلى موطنه أربجي وواصل تدريسه للقرآن بها إلى أن توفاه الله.

ثانياً: كان الشيخ ناصحاً لعشيرته وأتباعه ومريديه محباً للخير لهم، يدل على ذلك ما ذكره صاحب الطبقات عنه: (وأنه يأمر كل من أتاه وتاب على يديه أن يصحح توبته بشروطها، وأَنَّ شروطها الندم على ما فات من تضييع فرائض الله كمعرفة الله والصلاة والزكاة وغيرها، والإخلاص فيما يفعل وترك الربا والرياء والكِبْر والحسد والغيبة والنميمة والعُجْب.

ومن ذلك أيضاً: أَنَّه كان يأْمر كل من تاب على يديه أَلاَّ يزوج ابنته أو وليته من فاسق كالحلاّف بالطلاق، والفاسق، وآكل الربا.

ثالثاً: كان مقلاً من الاختلاط بالناس مشتغلاً بالإرشاد والتعليم والذكر والعبادة.

رابعاً: كان ينهى عن اختلاط النساء بالرجال ويحذر منه تحذيراً شديداً.

---

(١) جريدة الحضارة السودانية عدد «٢٥» تاريخ ١٩١٩/٨/٢٣م.

خامساً: ما كان يصافح النساء الأَجنبيات قط، وهذه من أعسر الأمور لدى السودانيين خاصة لا يستطيعها إلاَّ الفوارس.

فمصافحة المرأة الأَجنبية حرام، وما يشيعه بعض أدعياء العلم[١] من أن ذلك من خصائص الرسول ﷺ باطل لا أساس له، إذ أَنَّ خصائصه ﷺ معلومة ومعروفة وقد أَلف فيها العلماء وذكرها كثير من الفقهاء، منهم الإمام النووي في المجموع شرح المهذب فلم يشر منهم أَحد قط إلى أَنَّ المنع من مصافحة الأجنبيات من خصائصه دون المؤمنين، ومثل ذلك ادعاؤه الباطل أَنّ الحجاب خَاص بنساء النبي ﷺ، وهو كذب ويدل على جهله إذ يقول الله عز وجل في محكم تنزيله مخاطباً رسوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾[٢].

وكل ذلك يدل على صدق الرسول ﷺ واستمرار معجزاته الخبرية إلى يوم القيامة «إنَّ الله لا يَقبض العِلْمَ انتزاعاً ينتزعه من صدور الرجال ولكن يقبض العلم بموت العلماء، فإذا مات العلماء اتخذ الناس رؤوساً جهالاً فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا» الحديث.

سادساً: نهيه عن الختان الفرعوني، قال صاحب الطبقات: (وأنه أمر بترك بكارة النساء) وهذا من فقهه رحمه الله والذي اعتقده والله أَعلم أَنه كان ينهى عن الخفاض الفرعوني وليس عن ختان السُّنة وبينهما ما بينهما من الفروق، كما جاء في الحديث «اخفضي ولا تنهكي».

---

(١) أعني الترابي.

(٢) الأحزاب: ٥٩.

وقد ذهب أهل العلم رحمهم الله في ختان الأُنثى مذاهب هي:

١ ـ أنه واجب مثل ختان الذَّكَر ـ وهذا ما أُرجحه وقد ذكرتُ عدداً من الأدلة عليه فليراجع كتابنا «سنن الفطرة» ـ فصل الختان. وهذا ما ذهب إليه شيخ الإسلام ابن تيمية وغيرُه من أَهل العلم.

٢ ـ أَنه سُنَّة.

٣ ـ أنه مكرمة للنساء.

وذهب بروفسور يوسف فضل إلى أَنَّ الشيخ حمد رحمه الله ربما كان ينهى عن ختان الأُنثى أياً كان نوعه. فقال[١]: (يعتقد عامة السودانيين أن إزالة بكارة الفتاة أو «الطهور» أو الخفاض الفرعوني من السُّنة، وهو خطأ. ولعل دعوة الشيخ حمد أول دعوة من نوعها، فقد تنبه الناس إلى مضارها ودعوا إلى نبذها في السودان في الربع الثاني من القرن الحالي).

كما قلت: الذي يترجح لِي أَن نهي الشيخ حمد رحمه الله كان عن الخفاض الفرعوني، لأنه كان هو الشائع في وقته، حيث لم يكن هناك ختان سني للأنثى في ذلك الوقت وإنما ظهر الختان السني في السنوات الأَخيرة، والعلم عند الله.

ويكفي الختان الفرعوني سوء اسمه ونسبته إلى فرعون لعنه الله مما يدل على مخالفته للسُّنة.

يذكرني إنكار الشيخ حمد المبكر للختان الفرعوني في السودان باعتراض محمود محمد طه على الإنجليز عندما حاولوا منع الختان الفرعوني وحبسوا خاتنة، فخرج محمود في مظاهرة ضد هذا التصرف، وبضدها تتميز الأَشياء.

---

(١) هامش ٨ ص ١٧٥.

سابعاً: تذكيره لمن يريد أن يحفظ القرآن من الكبار وهو جاهل بما يجب عليه من أمر دينه أن يشتغل بالعلم.

قال صاحب الطبقات معدداً مآثره في الأمر والنهي: (ومن ذلك إذا جاءه أحد وهو يقرأ القرآن[١] ويريد أن يقيم عنده لقراءة القرآن يقول له: لا يجوز لك أن تقرأ القرآن وأنت جاهل بفرائض العين مما فرض الله عليك، من أحكام الوضوء والصلاة ومعرفة الله ونحو ذلك. وأما القرآن فنافلة إلاَّ أُم القرآن خاصة في الصلاة فإنها فرض، وسور منه على سبيل السنية).

ثامناً: العدل بين الزوجات، وروى عنه صاحب الطبقات ما يدل على ورعه الشديد في هذا الجانب حيث يصل إلى درجة المبالغة[٢].

تاسعاً: تجنبه لكل ما فيه شبهة ولو كان مما لا يمكن الاحتراز منه[٣].

عاشراً: إقامته للحدود الشرعية التعزيرية والتأديبية على أهل بيته وغيرهم.

أَحد عشر: كان مجاب الدعوة، وَحُقَّ لَه أَنْ تجابَ دعوته.

هذا قليل من كثير وغيض من فيض، إذ غرضنا التمثيل لا الإحاطة والإحصاء. وكما قلت فإن ترجمة حمد وسيرته من الترجمات النادرة التي حواها كتاب الطبقات حيث خلت من التخليطات والتخريفات التي شاعت وكثرت وعمت بها البلوى في تراجم غيره، مما لا يقبله عقل ولا دين.

---

(١) أي وهو يحفظ ما لا تتم الصلاة إلاَّ به.

(٢) ص ١٧٧.

(٣) ص ١٧٨.

توفي الشيخ حمد رحمه الله عام ١١٤٢هـ عن عمر ناهز السبعة والثمانين عاماً قضاها في تعليم الناس وإرشادهم إلى الخير ونصحهم لما فيه صلاحهم في الدين والدنيا، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، فقد كان حقاً ناصحاً لله ولرسوله ولدينه ولعامة المسلمين، والنصيحة لعامة المسلمين هي التي رفعت الخليفة الراشد أبا بكر الصديق رضي الله عنه إلى درجة الصديقية وإلى أَن رَجَح إيمانُه إيمان الأُمة، ألا رحم الله حمداً رحمة واسعة ونسأل الله أن يوفق أَحفاده إلى أَنْ يسيروا على طريقه ويحيوا سنته آمين.

الوقفة الرابعة

مع الشيخ عبد الله بن موسى الملقب بالمشمر[١]،
لعدم مصافحته للنساء الأجنبيات:

ولد الشيخ عبد الله بن موسى الملقب بالمشمر بقرية أم القرفة[٢] وهو من قبيلة البجا التي تقطن شرق السودان، كان يحفظ ربع يسّ فقط وكان مزواجاً.

لقد ترجم له صاحب الطبقات ترجمة موجزة لا تتعدى السبعة أَسطر ذكر فيها: (ومن ورعه أنَّه ما صافح امرأة أجنبية بيده) وهذه هي السُّنة، فكما صح عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما صافح رسول الله ﷺ امرأة ـ أجنبية ـ قط». حتى إن مبايعته للنساء كانت بالكلام وكانت من وراء الحجاب.

ومما يدل على كذب ما انتحله الترابي وافتراه من أَنَّ النهي عن مصافحة الأجنبية كان من خصائصه ما ذكره صاحب الطبقات في ترجمة هذا الشيخ: (وقال الشيخ محمد ولد هدوي في كتابه «صفة الفقير» ومن أخلاقهم أنهم لم يصافحوا امرأة أجنبية بيدهم).

وهذا يدل على أن النهي عن مصافحة الأجنبية كان معلوماً عندهم

(١) ترجمة رقم (١٥١) ص ٢٦٤.
(٢) تقع شمال شرق رفاعة بين أَبي جلفة وأُم شانق ـ انظر هامش (٦) ص ٢٦٤.

من الدين ضرورة، وقد درج عليها المسلمون قديماً وحديثاً، وإذا كان في ذلك العصر الذي كان العلم فيه قليلاً يوجد مؤلف يبين الصفات التي ينبغي أن تتوفر في «الفقير» أي المريد السالك في الصوفية، فمن باب أولى وبالأحرى أن يعلم ذلك غيرهم ممن يعيشون في هذا العصر حيث فشا العلم وانتشر وذاع وسهل الحصول عليه، ولكن نعوذ بالله من الخذلان.

أرجو أخي القارىء الكريم أن تقارن بين سيرة هذا الشيخ في عدم مصافحته للنساء، وبين الفوضى التي نراها اليوم في بيوت كثير من المشايخ حيث يختلط النساء بالرجال، وحيث تصافح النساء المشايخ بل يقبلن أيديهم، يحدث كل هذا من غير نكير ولا تنبيه..

بل لقد بلغ الجهل ببعض الناس أن يعانق الأجنبية بحجة أنها رافقته في الحج فهي «بنت حجته»!.

الوقفة الخامسة

مع الشيخ مالك ابن الشيخ عبد الرحمن ولد حمدتو[١] في نشره للعلم وتأليفه وأنه ما كانت تأخذه في الله لومة لائم:

هو مالك ابن الشيخ حمدتو كان عالماً بالفقه المالكي لا سيما الفرائض، وكان أبوه الشيخ عبد الرحمن عالماً نحريراً كذلك في الفقه المالكي.

وأبو عبد الرحمن كما يقول بروفسور يوسف فضل[٢] يعتبر زعيم أُسرة «الحَمَتُّيَّاب» المشهورة في دار الشايقية، ويسكنون بنُوري، وأم بكول، وبعضهم بمنطقة المناصير في أرض الزورة، وفي نادي[٣] بدار الرباطاب، وفي الفجيجة وقندتو بديار الجعليين، وفي الهلالية بالجزيرة، و«الحمتُّياب» من ذرية أبي بكر الصديق رضي الله عنه ويلتقون مع الزنارخة في جدهم نجم. ولاختلاطهم بالشايقية كثيراً عدوا منهم.

أما أسرة حمدتو المشهورة بالخرطوم وأم درمان فلا علاقة لها بالحمتياب كما أَخبرني حفيدهم «الباشمهندس» عبد الرحمن بن عبد الله حمدتو.

---

(١) ترجمة رقم (٢٣٣) ص ٣٥٠ ـ ٣٥١ وترجمة أبيه رقم (١٤٥) ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧.

(٢) انظر هامش رقم (٦) ص ٢٥٦.

(٣) لعلها نَدِي.

وامتاز الشيخ مالك هذا بالآتي:

برع في تدريس خليل والرسالة في الفقه المالكي وشرح خطبة خليل شرحاً جيداً كما يقول ابن ضيف الله.

ووضع ثلاثة حواشي على الميراث: كبرى، ووسطى، وصغرى، وهن في غاية الإفادة كما زعم صاحب الطبقات، ويعتبر هذا عملاً جليلاً في ذلك الوقت مع قلة العلم وفشو الجهل وصعوبة الحياة.

كان صعب الأحكام لا تأخذه في الله لومة لائم: (لا يبارى فيها ولا يماري ولا يداري) كما قال محمد نور رحمه الله.

بنى مسجداً بأرض الزَّوَرَة بأرض المناصير لتدريس الفقه وقد انتفع به خلق كثير.

كان هذا حاله إلى أَنْ توفاه الله عز وجل الذي يتوفى الأَنفس حين موتها ودفن بأرض المناصير بالزورة وقبره هناك، أَرجو أَلاَّ يكون مُتخذاً عيداً.

الوقفة السادسة

مع مناظرة في حكم «التُّمْبَاك» بين الشيخ إدريس بن الأَرباب والشريف عبد الوهاب، حرَّمه الأَول، وأباحه الثاني:

وقفتنا السادسة مع مناظرة علمية في حكم الشرع في «التمباك» بين الشيخ إدريس بن الأرباب والشريف عبد الوهاب بحضرة الشيخ عجيب رحم الله الجميع.

وقد ذكر ابن ضيف الله هذه المناظرة، وذكر من حرمه من علماء مصر والسودان، ومن أباحه منهم، وذكر أدلة كل فريق مع بيان الوقت الذي دخلت فيه القهوة «البن» و«التمباك» وهو أول القرن الحادي عشر الهجري.

قال رحمه الله[(١)]: (ثم بعد الألف وأول القرن الحادي عشر استعملت الناس شرقاً وغرباً «التنباك» والبن. فأَما البن فأَول من استعمله رجل من اليمن يقال إنه من العلماء اسمه الشاذلي. فاتفق العلماء على إباحة شربه[(٢)] لأَهل الطبيعة البلغمية بخلاف الصفراوية فإِنه يزيدها.

وأما «التنباك» فاختلف العلماء فيه. وأَفتى شيخ الإِسلام الأَجهوري بإباحة شربه. وأفتى سيدي إبراهيم اللقاني صاحب «جوهرة التوحيد»[(٣)]

---

(١) انظر ترجمة رقم (٦) ص ٥٢ ـ ٥٣.
(٢) أي البن القهوة.
(٣) على منهج الأشاعرة وليس على منهج أهل السُّنة.

بحرمة شربه وفي بلادنا أفتى الشيخ إدريس بحرمته وأَفتى الشريف عبد الوهاب راجل أم سنبل بإباحته. وحضر عند الشيخ عجيب وهو نازل في رفاعة. وقال له الشيخ إدريس قال بحرمته. وأنكر ذلك وقال: من رأسه أَم من كراسه؟ ثم حضر الشيخ إدريس عند الشيخ عجيب، وسأله بحضرة الشريف عبد الوهاب، وقال بحرمته وقال له: من رأْسك أَو من كراسك؟ فقال له: حَرَّمه السلطان مصطفى، سلطان اسطنبول، ومذهب مالك إطاعة السلطان. وأَخبره بالأُمور التي لم يرد فيها نص من الشارع. وأيضاً أخبرني رسول الله ﷺ بحرمته، ويشهد على ذلك الشيخ محمد الهميم، والشيخ حسن ولد حسونة، والقاضي دشين كان يشربه إلى أن توفي، يقول أولاً بحرمته. فقال الشريف: رضيتُ بالقاضي دُشين. فأرسل الشيخ دفع الله وسأله وهو في القبر(!!) فقال: «التنباك» حرام، كَلِّم الشيخ يسأل لِي المغفرة بسبب شربي له. والحكاية مشهورة والله أعلم بالحال. فقلت: سؤال الميت لا يترتب عليه حكم شرعي وإنما هو من باب كرامات الأولياء.

ثم إن الشيخ إدريس كاتب الشيخ الأجهوري مع تلميذه حمد ولد أبو عقرب حين سافر مع الفقيه حمد ولد أبو حليمة، والفقيه علي ولد أبو نافلة في سفرهما للحج. فلما دخل مصر، قالوا له: الشيخ ما بتلقاه من التدريس، والسناجك والبواشي والخوجات إلاَّ يوم الجمعة عند دخوله للجامع. ورصده يوم الجمعة عند الجامع وناوله المكتوب فقرأه فلما وصل إلى قوله «سمعتُ رسول الله ﷺ قال: «التنباك حرام» قال: يا بري شيخك صحابي؟! ورمى له المكتوب. فقال سراً: إنْ كان شيخي فيه بركة الله يظهر الحق فيك سريعاً عاجلاً. وفي الجمعة الثانية قام الشيخ إبراهيم اللقاني وقال: أيها الناس من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليلزم مكانه، وقال: يا شيخ علي الدخان جابته النصارى من بلاد الفرنج وافتتنت به المسلمين وأنت أفتيتهم بالإباحة، وهو حرام لأنه بدعة، ولأنه سرف، ولأنه محروق. فقال الشيخ علي الأَجهوري

للقاني: أنتَ قلتَ: بدعة فما قولك في الملبوس الذي لم يلبسه الرسول؟ وإن قلت سرفاً فما قولك في الرجل إذا كانت نفقة عياله سبعة دراهم يجوز أن ينفقهم عشرة دراهم. فإنْ أنتَ قلتَ: محروق فما بالك في اللبن فإنه محروق يجوز شربه. فقال له اللقاني: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾(١) أباحَ لرسوله المباهلة في قوله: ﴿فَمَنۡ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ ثُمَّ نَبۡتَهِلۡ﴾(٢) اللهم من أصبح منا أعمى فهو على باطل، فعمى الشيخ علي الأجهوري).

يتضح من هذه المناظرة الآتي:

أولاً: أن سلطنة الفونج كان يحكمها الشرع الإسلامي.

ثانياً: مكانة العلماء في الدولة وصلة الحكام بهم، فما كان الحكام يقطعون أمراً دون استشارة العلماء، ويأخذون بما يقولون.

ثالثاً: أن السودان كان على صلة بالبلاد الإسلامية خاصة الدولة العثمانية، ومصر، والحجاز، وغيرها من البلاد.

رابعاً: كانت هناك صلة وثيقة بين العلماء وطلاب العلم وبين الأزهر عن طريق الدراسة والاستفتاء.

خامساً: أن رؤيا الرسول ﷺ يقظة مستحيلة في هذه الحياة الدنيا بعد انتقاله للدار الآخرة وأَنَّ رؤياه مناماً إنْ توفرت شروطها لا يُبْنَى عليها حُكْم شرعي، وكذلك سؤال الأموات لا يجوز ولو سئلوا وأجابوا لما بُنِي على ذلك حُكْم شرعي كما قال ذلك صاحب الطبقات نفسه.

---

(١) النساء: ٥٨.

(٢) آل عمران: ٦١.

حكم شرب الدخان واختزان «التمباك» و«القات» و«القورو» وما شابهها:

ذهب أهل العلم في حكم ذلك كله بعد أن أجمعوا على أنها من الخبائث وأنها ليست من الطيبات مذهبين:

١ ـ أن شربها وتعاطيها حرام قياساً على المفترات والمخدرات، ولما رواه الإمام أحمد في مسنده عن أُم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ «نهى عن كل مُسْكِر ومُفَتِّر» الحديث.

قال الشيخ محمد المرزوق بن عبد المؤمن الفلاتي: (قال العلماء: والمفتر ما يؤثر الفتور في الأطراف، وحسبك دليلاً من الحديث على تحريم التنباك، أنه يضر بالبدن، ويفسد القلب، ويغير اللون، ويضر بالدين والمروءة والمال، ولأن فيه التشبه بالفساق في إضاعة المال، ويضر بالأسنان والفم والصدر ويضر ملائكة الرحمن عند التلاوة ويضر به الملكان اللذان لا يفارقان ابن آدم)[1].

٢ ـ أن شربها وتعاطيها مكروه.

والله أعلم، أما أن تكون هذه الأُمور مباحة فهذا بعيد جداً، أما زراعة التبغ والقات والقورو، وتصنيع السجائر وغيرها، والاتجار فيها، والتكسب منها، فحرام ليس في ذلك أدنى خلاف بين أهل العلم.

---

(١) السيف القاطع للنزاع تأليف محمد المرزوق بن عبد المؤمن الفلاتي تصحيح وتحقيق الشيخ إسماعيل الأنصاري ـ الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ ـ ص ٩٤.

الوقفة السابعة

مع الشيخ خوجلي بن عبد الرحمن[١]:

ولد بجزيرة توتي، وهو محسي أباً وأماً، امتاز بالآتي:

كان سمته سنياً، وكان مهتماً بصلاة الجماعة حريصاً عليها حاضاً أتباعه ومريديه عليها.

كان لا يدخل على الحكام ولا يأخذ عطاياهم ولا يذهب إليهم، وما كان يقوم ليسلم على أحد من الجبابرة (لا أولاد عجيب سلاطين بلده، ولا ملوك جعل) كما قال ابن ضيف الله، ولا غيرهم.

وما كان يخالط ولا يعاشر تارك الصلاة.

(١) ترجمة رقم (٩٤) ص ١٩٠ - ٢٠٣.

(ب) الوقفات مع ما فيه تخليط وتحريف

الوقفات مع ما فيه تخليط وتحريف ومخالفات شرعية مما جاء في كتاب الطبقات كثيرة جداً، ولكن سنكتفي بالتمثيل ببعضها للدلالة على كلها:

وما تجدر الإشارة إليه أنَّ أكثر التراجم حوت من التخليط والتحريف وما لا يقره شرع ولا عقل الشيء الكثير، خاصة تراجم من يأتي من الشيوخ:

الشيخ حسن بن حسونة - ترجمة رقم (٦٦).

الشيخ موسى أبو قصة - ترجمة رقم (٢٠٨).

الشيخ محمد الهميم الشهير بابن عبد الصادق - ترجمة رقم (٢٠٥).

الشيخ محمد قيلي - ترجمة رقم (٢٣٢).

الشيخ حمد النحلان بن الترابي - ترجمة رقم (٧٩).

الشيخ مكي الدقلاشي - ترجمة رقم (٢١٣).

الشيخ خليل الرومي - ترجمة رقم (٩٥).

الشيخ عووضة بن عمر شَكَّال القارح - ترجمة رقم (١٦٣).

الشيخ سلمان الطوالي ـ ترجمة رقم (١١١).

الشيخ عبد الرحيم المعروف ببياع المطر ـ ترجمة رقم (١٤٧).

الشيخ عبد المحمود النوفلابي ـ ترجمة رقم (١٧٥).

الشيخ محمد عيسى بن صالح الجعلي البديري المشهور بسوار الدهب ـ ترجمة رقم (٢٣٠).

الشيخ إدريس بن محمد الأرباب ـ ترجمة رقم (٦١).

الشيخ السلمي الصغير ـ ترجمة رقم (٢١).

الشيخ القدال بن إبراهيم بن عبودي ـ ترجمة رقم (٢٠).

وسنشير إلى أغرب وأطرف ما ورد في تراجمهم من عجائب وغرائب.

الوقفة الأولى

مع ما نسب للشيخ حسن ود حسونة من عجائب وغرائب:

لقد جاء في ترجمة الشيخ حسن ود حسونة عجائب وغرائب، منها ما لا يمكن أَنْ يصدر إلاَّ عن رسول بأمر الله كإحياء الموتى، وإبراء ذوي الآفات والعاهات في الحال.

ومنها ما يناسب أولياء الشيطان من الأحوال الشيطانية، والاستدراج، والسحر، مما ليس له علاقة بالولاية والكرامة، وإليك نماذج من ذلك:

أولاً: إحياؤه للموتى..

كنا نسمع من العامة أن الشيخ حسن أحيا «بقارة» فيقولون عند الاستغاثة «يا للّحْييت بقارة» ولكن بعد اطلاعي على كتاب الطبقات فقد تبين لي أنه لم يقتصر على «بقارة» وإنما أحيا غيرها كذلك، من ذلك:

(أحيا بنت الرويس في الخشاب[1] وأمها اسمها أم رقيمة جاءت له قالت: يا سيدي بنتي ماتت، أَبوها مَالهُ مال حرام كفنها لي. فمشى إليها شافهاً قال لها: بنتك طيبة ما ماتت، قومي. فتمالت[2] روحها وقامت)[3].

---

(١) قيل قرية جنوب شندي كان النيل يتفرع عندها إلى فرعين ـ انظر هامش (١٦) ص ١٤٣.

(٢) أي عادت إليها روحها.

(٣) ص ١٤٣.

(وأَحيا عفيشة ولد أَبكر غرق في البحر الخشاب فمكث في البحر ثلاثة أيام وانقضى نحبه. وقالوا له: صل على حوارك. فقال: أنا مانِ حسن الأَول عند سيدي، أَنا حواري غرقان له ثلاثة أيام ما أَخبره؟ فلما رآه قال له. قم، فقام فتمالت روحه، وتزوج بعد ذلك وولد له ولد أسماه أبكر[١]. قال سوار الخليفة: أنا شفت أبكر المولود بعد موت أبيه)[٢].

وأحيا ولد المرقوبين، رجال مراقيب عنده خرجوا معه للقنيص، عندهم فِرِدْ ولد لِقُوه ميت، جاءه شافه، قال لهم: ما مات، قم. فقام، فتمالت فيه الروح)[٣].

(وجاءه رجل مسافر للحج وأودعه فرخة ـ خادمة ـ، وقال: ودوها عند بقارة[٤] وبعد وقت أرسلت له بقارة، قالت له: الفَرْخَة الوداعة ماتت أَدوني لها كفن أَتَكَفِنْها به. ثم قدم سيدها من الحج فطلب جاريته، وأرسل الشيخ إلى بقارة، وقال لها: فرخة الفقير جيبوها له. قالت له: ماتت وأنتَ جيت كفنتها ودفنتها. قال: ما ماتت امشوا جيبوها، فنبشوها فوجدوها حية، وأدوها سيدها)[٥].

(وقد ذكر أن الشيخ دايماً رأْسه كاشف ما بِتْقَنَّع. قالوا: قال الشيخ إدريس: الشيخ حسن إنْ اتْقَنَّع الميت إنْ قاله قوم يقوم. فجاء رجل شايل طيرات ميتات على رأسه أَخَذَها منه فوضع كم قميصه على رأسه فطارت)[٦].

---

(١) كان الواجب أن يسميه حسن!.
(٢) المصدر السابق ص ١٤٣.
(٣) المصدر السابق.
(٤) يقول بروفسور يوسف فضل: قصة بقارة والفتاة متداولة بين الناس إلا أن بقارة تحل محل الفرخة في الروايات المتداولة ـ هامش رقم (٢) ص ١٤٤. واختلاف الروايات وتضاربها يدل على الوضع.
(٥) الترجمة ص ١٤٤.
(٦) المصدر السابق.

وليس الشيخ حسن ود حسونة الوحيد من المتصوفة الذي نسب له إحياء الموتى ومشاركة الله في الإحياء والإماتة، بل كذلك الشيخ دفع الله «المصوبن» كما مر بنا من قبل نُسبِ إليه أنه أحيا حواره جلوك الذي أكله التمساح بعد حين.

ثانياً: إبراؤه ذوي العاهات والآفات:

(فتّح) الشيخ علي كرانج ولد عجيب عندما عمي في آخر عمره: (مسكه من رأسه ففتح شاف الناس القاعدين يميناً وشمالاً وخلفاً وأماماً. فقال له: بقي لك أمداً يسيراً من الدنيا أخير ليك تكون في عَمَاك وتفتح بين يدي الله وَلاَ أخير لَكُ أفتحك من عماك. قال له: يا سيدي أخير لي أفتح بين يدي ربي)[١].

(ويحكى أَنَّ الملك بادي ولد رباط أرسل إلى الشيخ حسن وقال له: تعال اعزم إلى ناصر أخوي ماسكاه غزالاً[٢] عاجناه).

فلما سافر إلى سنار بخيله ورجله طلع بادي يتفرج فيهم وقال: (هذا فكياً أخذ ملكنا. قال: قولو له: أَنا مُلكك عَرَضُوه عَلَيَّ أنا أَبيته. قال لهم: ما بنزل إن كان ما أقضي حاجة الملك. وَدُّوه لحوش ناصر وأدخلوه عليه. وقال: أخرجوا الحريم والناس إلاَّ أُمه وأُخته انْدَسَّن في القطيع فَتَكَاهُ وذَبَحَه وقام من ساعته، وساقه في وجهه دخل به على الملك وقال للملك: ترى ناصر قعدناه للفقرا يبقى خم حوش يقضي لهم حوائجهم)[٣].

(وجابوا له رجل مجنون فقال: أين محله؟ قالوا له: محله بين

---

(١) المصدر السابق.
(٢) الغزالة أو أم غزيلات مرض أعصاب يشبه الجنون ـ هامش رقم (٤) ص ١٤٥.
(٣) المصدر السابق ص ١٤٥ ـ ١٤٦.

الدال والفتيح فقال: بين الدل والفتيح يا أم شتيح فعوفي الرجل من حينه)[١].

(وجاءت له خادمة يقال لها مهيوبة قالت له: اكتب لي ورقة قبول. كتب لها في ورقة: حموزة مهيوبة، حمراء مقلوبة، تلعب بها الهوبة، في جزاير النوبة. فحظيت به حظاً وافراً. فَقِدْمَت فجابتها للجلاد فقرأها فقال لها: مَنْ كَتَبَ لك هذه الورقة؟ فقالت له: الشيخ حسن. قال لها: الشيخ نبزك فيها فانقطع حظها)[٢].

وفي غير نسخة الطبقات المطبوعة هذه: أن هذه المرأة عاهرة، وشكت له قلة الرواد فكتب لها هذه الورقة فزاد روادها!!.

ثالثاً: كانت جبته لا تلمس جلده[٣].

رابعاً: كان يرفع يديه في الهواء فتمتلىء دنانير[٤]!!.

خامساً: زيَّن خليفته بَلَل الشيب ولد عبد الفتاح بأصبعه بلا موسى!.

فاعتبروا يا أولي الألباب بهذه الكرامات وخوارق العادات!!.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق ص ١٤٦ ـ ١٤٧.

(٣) المصدر السابق ص ١٣٥.

(٤) المصدر السابق ص ١٣٧.

الوقفة الثانية

مع ما نسب للشيخ موسى أبو قصة من طامات وخرافات[(١)]:

أولاً: منها أنَّه سلك طريق القوم على أَبيه الشيخ يعقوب وأَرشده وأَوصله مقامات الأولياء، وقرأ عليه أيضاً مختصر خليل والرسالة... فصار إماماً في علم الظاهر والباطن.

ثانياً: وَسُئل الشيخ حسن بن حسونة عن مقام الشيخ موسى فقال: هو في مقام الفرد، ومقام الأَفراد عند الصوفية غير القطبانية، والأَوتاد الأَربعة، والنجبا السبعة، والأربعين البُدَلا، فهم على عدد أَهل بدر وهم للقطب بمنزلة العسكر.

قلت: ومهمتهم إعانة المولى عز وجل في إدارة الكون وتدبير الملك، سبحانه ما قدروه حق قدره كما يزعم الصوفية!!.

ثالثاً: وكان إذا نظر للأَعرابي ينطق بالحكمة وأَرشد خلقاً كثيراً بمجرد النظر، ويوصله في درجات الأولياء.

قلت: لكن رسولنا محمداً ﷺ ما كان يستطيع أن يفعل ذلك: ما العلة يا ترى التي مكنت الشيخ موسى ومنعت محمداً ﷺ؟!.

رابعاً: كان عالماً بمنطق الطير.

---

(١) انظر ترجمة رقم (٢٠٨) ص ٣٢٤ ـ ٣٢٨.

خامساً: ومن كراماته أَنَّ رجلاً ضاعت دابته فأمره بشرب السمن، فشرب الرجل السمن فخرج للخلاء فجاءته حمارته مطلوقة وساقها.

قلت: مما يدل على أن هذا من عمل الشيطان أن الدابة جاءته وهو يتغوط.

سادساً: دعواه أَن الخضر جاءه وقال له: لا سبيل للمَلِك عليك.

سابعاً: كان يملك الإماتة فقد أمات «غرارة» أم ملك سنار إذ عندما ماتت وجدوا في سريرها ورقة مكتوب فيها «ببركة موسى ولد يعقوب أُم المَلِك تموت» فأُخبر الملك بذلك فغضب غضباً شديداً وعزم على قتله.

ثامناً: من كراماته أنْ ظل قبره كعبة محجوجة!!!.

الوقفة الثالثة

مع ما نسب إلى الشيخ محمد الهميم[(١)] من طامات وتخليط:

قبل بيان التخليط والتحريف الذي سيق في ترجمة محمد الهميم «ود عبد الصادق» لا بد من التنبيه على بطلان التبريرات والاعتذارات التي ساقها صاحب الطبقات معتذراً بها عن «ود» عبد الصادق وغيره، نحو:

١ ـ **أَنَّه** كان من الملامتية وهم من أَسوأ أَنواع الصوفية، حيث إنهم كما يزعم الشعراني في طبقاته، وابن ضيف الله وغيرهما يتعمدون ارتكاب المحرمات وترك الواجبات. ليعيبهم الناس على ذلك، وينتقصوهم فقط ليهضموا أنفسهم وليزيلوا عنها العُجْب والكِبْر! وليس لهذا الصنيع الشنيع المخالف للشرع والعقل من مثل إلا ذلك الذي يريد زوال النجاسة بنجاسة أخرى.

وقد ساق الشعراني في طبقاته من تصرفات هذا الصنف من البشر ما يندي له الجبين نحو قوله عن الشيخ العريان: كان رضي الله عنه يطلع المنبر عرياناً(!!) سبحان الله كيف يرضى الله عنه وقد آذى الله وملائكتَه والمؤمنين بكشف عورته المغلظة في أَقدس البقاع وأَحبها إلى الله، في مسجد بل في منبر مسجد.

---

(١) انظر الترجمة رقم (٢٠٥) ص ٣١٦ ـ ٣٢٢.

فهذا الرجل إن لم يكن مجنوناً فاقد العقل فقد استحق التعزير والتأديب الشديدين، ولا يجوز بحال من الأحوال أنْ يوصف بِأنه ولي أو أنَّ هذه كرامة، ومن زعم ذلك فقد خان الله ورسولَه وأغضبهما وأبان عن جهله الفاضح.

ومن ذلك ما حكاه الشعراني عن إبراهيم الخواص كما مر قبل ذلك أنه كان يسرق ملابس من يدخل الحمام ويلبسها تحت ملابسه مما يضطرهم أن يخرجوا شبه عرايا من الحمام ويلحقوا به في السوق ويضربوه ضرباً هو أقل مما يستحقه ثم يأخذون منه ملابسهم.

فهل كون الشخص من هذه الطائفة ـ كما نسب لها محمد الهميم ـ ميزة أو شرف أو عذر له أن يرتكب المحرمات وينتهك الأعراض؟!.

٢ ـ **أو** نحو أنه كان في حالة الجذب الإلهي، فهل هذا يبرر لمحمد الهميم أن يجمع تحته أكثر من تسعين امرأة وأَن يجمع بين ابنتي بان النقا أبي يعقوب وابنتي أَبي ندودة برفاعة؟!.

والجذب الإلهي لا يمدح به أَحد لأَنه نوع من ذهاب العقل، وغاية ما هناك ـ إن لم يكن للإنسان دخل في اكتسابه ـ أَنَّ القلم مرفوع عنه. أما إن كان له دخل في اكتسابه نحو استعماله لأوراد شيطانية أو لعلاقة مع الشياطين ونحو ذلك فهو يحاسب على ذلك أَشد المحاسبة في الدنيا والأُخرى، ففي الدنيا تقام عليه الحدود الشرعية هذا بجانب ما ينتظره من العقوبات الأخروية.

٣ ـ **أَو** نحو أن يستدل على المخالفة بحكاية ما جاء في كتاب الشعراني عن أحد شيوخ الصوفية كأَن ما ورد من أحاجي وخرافات في طبقات الشعراني قرآن أو سُنة أو إجماع، أو كأنه مثل صحيح البخاري أَو أَحد دواوين السُّنة، وهذا لعمر الله أَشد نكارة مما يسوقه من خرافات وأباطيل مخالفة للشرع والمعقول، وأكبر دليل على مخالفته للمعقول والمنقول اجتهاده هو في إيجاد التبريرات لما يورده.

٤ ـ **ونحو** ما حكاه عن الشعراني: وإذا أخبر الولي بكلام ولم يقع فلا تنكر عليه بأن يقال كذب بل يحمل على أنه نظر في ألواح المحو والإثبات!!.

٥ ـ **ونحو** قوله: وهذا غير بعيد على من منحه الله تعالى ذلك. وذلك عندما حكى عن البعض أن الشيخ خوجلي يرى الرسول ﷺ يقظة كل يوم أربعاً وعشرين مرة(!!) مثلاً.

نعود لذكر أخطر ما نسب للشيخ الهميم في ترجمته من تخريفات ومخالفات شرعية:

١ ـ جمع تحته أكثر من تسعين زوجة[(١)].
٢ ـ جمع بين بنتي بان النقا أَبي يعقوب وبنتي أَبي ندودة برفاعة.
٣ ـ دعوى أنه دعا على القاضي دُشين لأَنه فسخ نكاحه من الأُختين وغيرهما بأَنْ يتفسخ جلده فمرض وتفسخ جلده!!.
٤ ـ أن قبره كعبة محجوجة بالمندرة.
٥ ـ غَصَب امرأة من أَربجي اسمها زريقة يحسبها سرية، هب أنها سرية هل يجوز له غصبها؟!.

أما تأديب أولاده للفيلة كما يصفهم الناس فإن صح ذلك فليس فيه أدنى كرامة إذ السحرة وَمُرَوِّضي الحيوانات المفترسة الآن يصنعون أكثر من ذلك، إذ ليس كل خارق للعادة يعد كرامة.

وكذلك حمله «للدوكة» مِنْ أَربجي إلى سنار وبالعكس على رأسه لأنه أحضرها لزوج شيخه تاج الدين البهاري وكانت بغابة أربجي ثم وجدهم ارتحلوا إلى سنار ثم عادوا مرة ثانية، فهذه الحكاية إن صحت ولا إخالها تصح قط فإنها لا تدل على شيء كذلك، إذ ليس في ذلك احترام للشيخ تاج الدين البهاري.

(١) هؤلاء النسوة ليس لهن أولياء؟!.

الوقفة الرابعة

مع ما نسب إلى الشيخ محمد قيلي[١] من طامات:

من كراماته الغريبة العجيبة أنه كان:

١ ـ (إذا قامت عليه الحالة ينعطن في البحر أَياماً حتى يبردها عليه فيخرج) كما قال صاحب الطبقات.

٢ ـ (وكان وقت قيام الحالة عليه إذا خرج مسافر يتبعه أهل البلد الذي يمر عليه حتى مواشيهم من خيل وبقر وحمير بأن يحصل عليهم قلق لا يستطيعون إلا اللحوق به) كما قال صاحب الطبقات.

٣ ـ (ذات يوم جينا منتظرنه[٢] لصلاة الصبح فشفناه جاء طايراً بين السماء والأرض فنزل عند باب خلوته فخطا خطوتين عند نزوله كالصقر ثم دخل خلوته فلم يُصَلِ معنا الصبح) قلت: رضي الله عنه!!!.

٤ ـ وقال وهو داخل في قبة جده غلام الله في ضنقلة: (الأَولياء فيهم أوتاد وأحبار وبدلا ونجبا، فكلهم خرجوا من ظهر جدي هذا).

---

(١) ترجمة رقم (٢٣٢) ص ٣٤٩ ـ ٣٥٠.

(٢) كما يقول الراوي.

الوقفة الخامسة

مع ما نسب للشيخ حمد النحلان بن الترابي[١] من طامات ومخالفات شرعية:

من أخطر ما جاء في ترجمة حمد الترابي ما يأتي:

أولاً: هجره للفقه وتدريسه وسلوك طريق الصوفية بعده، وهذا المسلك من أوائل المسالك التي يصل بها إبليس إلى المتصوفة وأخطرها كما قال الحافظ ابن الجوزي رحمه الله: (اعلم أن أول تلبيس إبليس على الناس صدهم عن العلم، لأن العلم نور فإذا أطفأ مصابيحهم خبطهم في الظلم حيث يشاء، وقد دخل على الصوفية في هذا الفن من أبواب)[٢].

واعتزال حمد الترابي للفقه وتدريسه هو الذي جر عليه كل الطامات الآتية: حكى صاحب الطبقات عن أبي كسيبة قال: (فلما رجعنا من تشييع الشيخ[٣] سألنا خادم الشيخ حمد: يا بخيتة أين سيدك؟ قالت: سيدي مِمَّا رَوَّحَ الشيخ سَدَّ خلوته ما فتحها لا أكل ولا شرب. قال: جينا ناغمناه قلنا له: افتح الخلوة اقرأ لنا[٤]. قال: يا أبو كسيبة أنا وخليل افترقنا إلى يوم القيامة. شيل ولد التنقار قلنا له: تدخل الخلوات تهمل أولادك؟).

---

(١) انظر الترجمة رقم (٧٩) ص ١٦٠ ـ ١٧٣.

(٢) تلبيس إبليس لابن الجوزي ص ٣٢٠.

(٣) أي وداع الشيخ دفع الله العركي حيث جاء لزيارة قبر الشيخ إدريس وخرجت كل المنطقة لاستقباله عندما عدى النيل الأزرق غرباً.

(٤) كما كان يقرأ لهم من قبل في مختصر خليل والرسالة.

ثانياً: دخوله خلوة مصكوكة عليه لمدة اثنين وثلاثين شهراً لم يتناول فيها ماء ولا طعاماً قط، فبعد أن خرج منها وجدوا القرص الذي كانوا يضعونه له في الطاق كما هو وكذلك الماء يصبه على الأرض كما تقول الحكاية!!.

ثالثاً: ادعى أنه المهدي المنتظر وهو بمكة وأرسل حواره ميرف ليبشر به في السودان عندما أُنكر عليه هناك وضرب وحبس هو ومن كان معه.

قال ابن ضيف الله: (ثم لما وصل في مكة قال: أنا المهدي. فضربوه هو وحيرانه. قالت الحاجة[1]: ساقونا حبسونا ثم طلقونا... فأرسل ميرف حواره وقال له: أمشي في سنار قول المهدي نزل. فأمر الملك بادي أبو دقن بقتله وجره. فارتعدت السماء وأبرقت، وأصابهم مطر شديد هدم البيوت وسالت السيول في غير الوقت وخور أم خِنيجر الموجود الآن مجر جنازة ميرف)!!.

قلت: ظن الشيخ حمد بأهل السودان ليس أفضل من ظن حفيده حسن فيهم، حيث قال حسن: من حسن حظنا أنا في بلد ضعيف الثقافة والعلم. أي نستطيع أن ننشر فيه ما نريد من ضلالات وانحرافات، ولكن ظن الشيخ خاب فقد قتل المبشر بمهديته، وظن حفيده لم يخب حيث لا يزال ينشر في نظريته العريضة «تطوير الدين وتبديله» باسم الدين من غير نكير لأنه مصاب بمرض الشهرة.

رابعاً: من ثمار تركه للفقه ذهابه للحج من غير زاد، قال صاحب الطبقات عن خروجهم للحج: (وطلعوا من عيدي[2] ولد عشيب بالنهار صايمين وبالليل ينزلوا عرياناً يفطرونهم وهكذا إلى أن وصلوا سواكن. لا يدرى هل من باب الكرامة أو أنهم في زمن العمارة).

---

(١) أي زوجه.

(٢) أي عيدج.

قلت: قال الله تعالى مخاطباً الحجيج: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾[(١)] الآية، وعندما قال بعض أهل اليمن وهم يريدون الحج للإمام أحمد: نحن المتوكلون نريد الذهاب للحج من غير زاد، فنهاهم عن ذلك، وقال لو كنتم متوكلين حقاً فلا تخرجوا مع القافلة. قالوا: لا بد لنا من الذهاب معهم. فقال: إذن على جُرُب القوم توكلتم. وكذلك الشيخ حمد وحيرانه على العربان توكلوا.

سادساً: قوله بعد أن أُنكر عليه في مكة ادعاؤه أنه هو المهدي المنتظر: (أنا سيدي رفع لي الطبق وأوراني التحته سافراكم إلى بلدنا المضوي يضوي في بلده. فقدم البلد قال: هذا مكان خلوتي، وهذا مكان قبري. وتكلم بالغيبيات وبما يكون في العالم وما سيكون).

سابعاً: كان ممن تقوم عليه الحالة: (قال ولد أبو جويلي الخواجة سافرت من أربجي إلى الجديد لي ديناً فيه. فزرت الشيخ حمد فوجدته قايمة عليه الحالة: زبده يتقطع وسنونه يقولن: كَرَجْ كَرَجْ كل يد على فقير. قال جيت أسلم عليه الفقرا أمروني بالصبر إلى أن يفيق فسلمت عليه وقلت: يا سيدي الفاتحة فرفع يديه) ثم كاشفه مباشرة بعد الحالة بأن قال له لما أخبره أن له ديناً بالجديد: (بتخلص فيه كذا وكذا وينقطع فيه كذا) فكان طبقاً لما كاشفه!!.

---

(١) البقرة: ١٩٧.

الوقفة السادسة

مع الشيخ مكي الدقلاشي[(١)]:

من أغرب ما روي عنه ما يأتي:

أولاً: أن الشيخ دفع الله أدخله خلوة أسبوعاً فخرج منها ولياً من أولياء الله تعالى، فظهرت له كرامات وخوارق عادات.

ثانياً: (جاء لزيارة شيخه فلم يجدوا المركب فمشى هو وحيرانه على الماء حتى خرجوا منه).

ثالثاً: (وظلم حيرانه رجل اسمه أزرق من جماعة شيخ أليس[(٢)] وادلّى سنار[(٣)]، فدخل في مسجد الملك، قايمة عليه الحالة مزق مصحفاً وجده في الطاقة فَدَخَّلَه الخطيب والقاضي على الملك فَسألهم الملك عن ذلك فقال شعراً:

مِنْ قُمْتُ سَمُّوني الهَايم   صابوناً لي ابْ جِناً قايم

يا كاشر[(٤)] جيب السلطية   الشقدين ارفعهم ليَّ

---

(١) ترجمة رقم (٢١٣) ص ٣٣٢ ـ ٣٣٥.

(٢) موضع كان مركزاً للفونج على النيل الأبيض ـ الكوة الآن.

(٣) أي ذهب إلى سنار.

(٤) اسم مولاه.

فأومأ للملك بأصبعه فزاغ المك. قال لأصحابه: إِنْ كَانْ ما زغتُ كان أصبعه يَقِد رأسي).

رابعاً: (فشكا إليه المك بادي من التمساح وقال له: التمساح شال[1] حصانه. غطس في البحر وقلع في وقته، جميع التماسيح قلعت ميتة).

هذه الغرائب مقالها يغني عن حالها ولا تحتاج إلى تعليق.

(١) أي أخذ.

الوقفة السابعة

مع الشيخ خليل الرومي[١] وما نسب إليه من طامات:

من عقائد الصوفية الكفرية اعتقاد البعض أن بعض المشايخ يمكن أن تسقط عنهم التكاليف الشرعية، ويحل لهم ما حرم على غيرهم من المكلفين، بل أغرب من هذا ادعاء البعض أن الشيخ إذا شرب خمراً تحول له لبناً وإذا نظر إلى امرأة وسيمة فليس غرضه التغزل كغيره من البشر وإنما غرضه التفكر في خلق الله ونحو ذلك من التبريرات والاعتراضات الباردة الضعيفة.

وأخشى ما أخشاه أن يكون خليل الرومي من هذا الصنف ما لم يكن غير مكلف لذهاب عقله بأي سبب من الأسباب، إذ الجنون فنون كما يقول السودانيون وليس لما سنذكره عنه الآن من مبرر سوى ذلك، من شربه للخمر وحيرانه معه.

أولاً: قال عنه ابن ضيف الله: (...وظهرت له كرامات وخوارق عادات، منها أنه جاءه رجل وقال له: شردت لي خادم منذ عام، وقال له: اسأل الله أن يردها علي. فقال له[٢]: جيب بُرْمَة مَريسة وشَلاَتِيت وَدِيك خَصِي. فَجَابَ الرجل برُمتين ملانتين وديكين خصيان. فصفوا المريسة

---

(١) ترجمة رقم (٩٥) ص ٢٠١ ـ ٢٠٣.

(٢) أي الشيخ.

وشربوها هو وضناقلته[١] الذين معه. ثم جاءه الرجل العصر[٢] وقال له: أين خادمي؟ فقال: شيل الشجر[٣] وقل: يا بخيتة ثلاث مرات. فجاءت الخادم شايلة قربة ماء وحبلها على وجهها. وقالت: يا سيدي شِنْ جابك هنا هذا بحر أتبرا؟ وهو قال لها: هذا سنار. فساقها وأتاه بها وقال من بعيد امش).

قلت: اعتبار ابن ضيف الله أن هذه الحادثة كرامة أشد من شرب خليل وحيرانه للخمر.

ثانياً: ومنها أَنَّ جماعة سرقوا شاة له وذبحوها وأكلوها: (فجعلت الشاة تصيح في بطونهم وانتفخت بطن الرجل الذي سرقها، فذهبوا به إلى الشيخ وقالوا له: نغرمها بأربع من المعز واعف عن الرجل، فجعل يوكز الرجل والرجل يضرط ويقول له: يا دماً دماً، ودعا عليه، فانهضمت بطن الرجل وعفا من غرم الشاة).

ثالثاً: ومنها أن رجلاً جاءه بامرأة له مجنونة فوجده يبني في بيت له فعدل الرجل له شعْبة. فقال له: (عدلتَ الشعبة نحن الحاجة التي تحت الشجرة عدلناها لك. فذهب الرجل إلى زوجته فوجدها صحت من الجنون وقالت للعبد: ما أجلسك بجنبي؟ أَنت زوجي؟ أَوْ مِنْ محارمي؟).

رابعاً: جاءه أَخو الملك وقال له: يا سيدي إن أخي فارقه ملكه ونخشى عليه من الهلاك من عبيده. فقال له: أخوك الظالم المفسد. فقال له: اتيه إليك ويتوب على يديك من الظلم والفساد.. فلما جاءه قال له:

---

(١) لأن الشيخ أصله ضنقلاوي جابري نسبة للجوابرة، مجموعة من الضناقلة تنتسب إلى جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) بعد أَنْ استحكم سكره.

(٣) الغابة.

الفنج أَخذوا عمامة الملك منك فهاك عمامتي وضمنتُ لك مُلْكَ أَبيك إِلى أَن تموتَ ولكن إذا خرجت للقتال أحضرني وأحضر حاج عمارة. فلما أصبح خرج على تلك الجيوش في ثلاثين فرساً، وأحضر الشيخ والحاج عمارة كما أمره الشيخ فهزمهم ببركة الشيخ وقتلهم أشد قتلة وبقي في ملكه إِلى أَنْ مات. والمك المذكور بادي الأَحمر ولد أونسة ولد المك ناصر).

الوقفة الثامنة

مع الشيخ عووضة بن عمر شَكَّال القارح[١]:

أولاً: كان يعطي البنين والبنات كما قال صاحب الطبقات: (كان في ضنقلة رجلاً غنياً وعنده امرأة عاقر قاطعة من الحيض، فَإِذا جاء شهر الحيض تلطخ ثديها بدم جدادة فقالت لزوجها: وديني للشيخ عووضة يديني جنى. عندها قدحاً ملته فطير قمح وحمام ودجاج وشيلته فرختها. وقال لها: تديني فرختك وأسورتك وحجولك. فقلت له: خير. فقال لهما: ادخلوا أرقدوا فوق عنقريبي و[٢] ياكل في فطير القمح والدجاج والحمام. فأنكر عليه بقلبه رجل حاضر في المجلس. قال: الحضري أَكَّال الرغيف بتعدّا على أحكام الله! فقال لهما: أديتكم ولد، ثم أديتكم ولد، ثم أديتكم ولد، ثم أديتكم بنت تمسك البيت. قال[٣]: عووضة إن قال للعود اليابس ألد يلد).

قلت: كأني بعووضة هذا يملك بنكاً للأولاد والبنات يصرف منها حيث شاء!!.

وعووضة ليس آخر من يدعي أنه يعطى البنين والبنات بل غيره كثير فهناك الشيخ يوسف أَبو شرة كان يعطى الأولاد. وقال أحد حيرانه:

(١) ترجمة رقم (١٦٣) ص ٢٧٢ - ٢٧٧.

(٢) وهو.

(٣) للرجل الذي أنكر في سره.

نحن نعرف الولد الذي أعطاه الشيخ يوسف فإنه مكتوب على رقبته «يوسف» أي مختوم!

بل هناك من حيران الشيخ أبي كساوي من يعتقد أن الشيخ أبا كساوي عنده «كوته» في الخَلْق فإذا رأى أَحدُهم شخصاً لم يعجبه قال: تخلق خلايقك يا أبا كساوي!!.

وهناك من الشيوخ من يملك استبدال الأنثى بالذكر كالشيخ ود أبي زيد المدفون بأربجي إذ يزعم البعض أنه قلب أنثى ذكراً ولهذا يقال: «ود أب زيد قَلاَّب البنية وليد».

بل إن بعض حيران الشيخ طاي الله بمنطقة معتوق بالمناقل يُقْسم ويقول: وَحْيَاة الشيخ طاي الله الخلقني شحمة ولحمة.

بل يقال إن هناك رجلاً ذهب يطلب الولد من بعض الشيوخ مرات عديدة فلم يرزق ثم جاء أخيراً وقال للشيخ: أريد ولو بنتاً!!.

هذه العقائد الفاسدة الباطلة لا تزال موجودة ويتعاطاها الناس من غير نكير، لا يجوز لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسأل مخلوقاً شيئاً لا يستطيعه المخلوق مثل هبة الأولاد، وحسن الختام، ونحو ذلك، أما ما يستطيعه البشر فلا مانع أن يتعاون فيه الناس وقد أمر الله بالتعاون على البر والتقوى.

ثانياً: كان يحول الفساق إلى أَولياء في الحال، إذ لم يكتف عوزخة بهبة الأولاد بل كان يهب الولاية أيضاً (جاءه رجل... كان فاسق الجوارح كلها. قال له: عندي ساقية معيشة أديتك فيها ربع. قال له: ايش تدير عندي؟ قال له: بدور الليل[1]، الله. قال: أديتك ربع الليل، الله. فإن الرجل

---

(١) يرمز الصوفية بالليل وليلى إلى الذات العلية، نعوذ بالله من الخذلان.

تاب واستغفر ثم جاء ثانياً. قال: كملت النصف الآخر. قال له: أديتك نصف الليل الله. فمشى في الخير والزيادة. ثم جاءه قال له: أديتك الساقية كلها. قال له: أَديتك الليل كله. فوقع مغشياً عليه حتى فاق فصار من أولياء الله تعالى).

ثالثاً: كان يعلم آجال الناس، وجاءه رجل مذنِب وقال: (أنا عبد مذنب بدور الله يغفر لي. قال: شن تديني؟ قال: أديتك كذا وكذا. وأقبضه إياه. قال له: في الشهر الفلاني باليوم الفلاني حسن ولد بليل بيموت، فإذا أدخلوه في المطمورة اعصره عليك الله يغفر لك).

الوقفة التاسعة

مع الشيخ سلمان الطوالي[١] الزغراد:

حوت ترجمة سلمان هذا الكثير من الطامات، منها:

أولاً: كان يكثر من الزغاريد حتى لقب بالزغراد.

ثانياً: كان يذكر الله بالدلوكة أو الطبل.

ثالثاً: غصب جارية من أهلها متخصصة في ضرب الدلوكة.

مع ذلك كانت له كرامات وخوارق عادات، منها:

رابعاً: أنه صنع لحماً لضيوف فكل من أكل من هذا اللحم حصل له فتح.

---

(١) ترجمة رقم (١١١) ص ٢١٨ ـ ٢٢٢.

الوقفة العاشرة

مع الشيخ عبد الرحيم المعروف ببياع المطر وابن الخطوة(١):

أولاً: من طامات هذا الشيخ أنه كان يبيع المطر راداً لقوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ﴾(٢).

بل إن هذه الأمور الخمسة شارك فيها المولى عز وجل كثير من أولياء السودان وغيرهم!!.

ثانياً: كان يعرف بابن الخطوة لأن أباه عبد الله العركي كان مجاوراً بالحرمين وفجأة حضر إلى السودان وواقع زوجه فولدته له ولهذا يعرف بابن الخطوة، ولم يحضر إلى السودان إلا بعد سبع سنين من ولادته.

---

(١) ترجمة رقم (٢٧) ص ٢٥٨.

(٢) لقمان: ٣٤.

الوقفة الحادية عشرة

مع الشيخ عبد المحمود النوفلابي[١]:

أولاً: من طاماته أَنه لم يحج وقال صاحب الطبقات: (وأظنه حج بالطيران)!!.

ثانياً: (كان مؤذناً يطير في أذانه).

قلت: المرء إذا طار به شيطانه إلى مكة أَو أَوقفه بعرفات والمشاعر لا يعتبر حج ولا تسقط عنه الفريضة، وفي الغالب فإن الشيطان إما أن يحضره يوم عرفة فقط، أو يتمثل به في الطواف أو السعي فيراه من يعرفه فتزداد فتنته به.

علماً بأن الطيران ليس من سمات وخصائص عباد الله الصالحين وإنما من خصائص أولياء الشيطان.

(١) ترجمة رقم (١٧٥) ص ٢٨٧ ـ ٢٨٨.

الوقفة الثانية عشرة

مع الشيخ محمد بن عيسى الشهير بسوار الذهب[(١)]**:**

أولاً: مما نسب لسوار الذهب من الغرائب أنه (ملك ملوك الجان السبعة) قلت: من أين عرفوا أن للجان سبعة ملوك؟!.

ثانياً: أوصى هو والشيخ إدريس السيد الخضر على ذريتهما؟!.

ثالثاً: عندما أصاب أهل ضنقلة غلاء شديد واستغاث به الملوك والرعية (أعطاهم جريد النخل فانقلب فضة).

(١) ترجمة رقم (٢٣٠) ص ٣٤٧ ـ ٣٤٨.

الوقفة الثالثة عشرة

مع الشيخ إدريس بن محمد الأرباب[١]:

من أطول التراجم في كتاب الطبقات ترجمة الشيخ إدريس وحسن ابن حسونة وحمد النحلان، وموسى أبو قصة والشيخ خوجلي بن عبد الرحمن.

وقد نسب إلى الشيخ إدريس عدداً من المبالغات منها:

أولاً: كان عالماً بحكمة الحكما وعلم العلما من غير أن ينظر في كتاب ـ يعني علمه علم لدني.

ثانياً: كان يغترف علمه من اللوح المحفوظ.

ثالثاً: تنبأ بظهور الشيخ خوجلي في جزيرة توتي قال: (يظهر في هذه الجزيرة ولد له شأن عظيم).

رابعاً: كاشف رجلاً من المحس اسمه حمد الفقير: (بنيتك طيبة؟ قال: طيبة! والرجل ليست له ابنة. فقالوا له: تكذب تقول طيبة. قال: الشيخ كان ما كاشف عليّ باني ألد لي بنت ما قال مثل هذا. فكان الأمر كما قال، فولد لذلك الرجل بنت).

---

(١) ترجمة رقم (٦) ص ٤٩ ـ ٦٥.

خامساً: أخبر رجلاً اسمه الحاج سعيد قال: الرسول ﷺ يقول لك: «ابن لدفع الله مسجداً». قال له: أنا كافر ما بجيني. وحلف بالطلاق أنه إنْ ما رأى الرسولَ وأمره بذلك لا يبنيه فرأى الرسول ﷺ وأمره ببناء هذا الجامع. فبناه حينئذ.

سادساً: أخبر الشيخ صغيرون أن ابنه أطول منه عمراً وأكثر تدريساً فكان كما أَخبر!!.

الوقفة الرابعة عشرة

مع الشيخ المسلمي الصغير[١]:

مما نسب إليه من طامات:

أولاً: أَنه بعد ما فرغ من دراسة خليل والرسالة سافر إلى الشيخ دفع الله قال له الشيخ دفع الله: (تعال يا فقير أَنْتَ مَاكْ عَالِمْ؟ قال: لا! قال: أنا بشوف عليك أثر العلم. إما صدقتنا مَا بِتَنْتَفِع منا. قال له: علمي ما نفعني جيت بدور مددكم. فسلكه طريق القوم. وذبح له شاة وأمره بأكلها وَدَخَّلَه خلوة سبعة أَيام فخرج منها ينظر في العالم من العَرْش إلى الفرش).

ثانياً: (قال: من يأتيني بفرخة عند الزوال ينظر من فوق السموات إلى ما تحت الأرض السفلي بيعة من رسول الله ﷺ).

(١) ترجمة رقم (٢١) ص ٨٣ ـ ٨٧.

الوقفة الخامسة عشرة

مع الشيخ القدال بن إبراهيم عبودي[١]:

مما نسب إليه من طامات:

أولاً: لقب بالقدال لأنه رؤي يقدل في المدينة!.

ثانياً: كان من صغره ينطق بعلم الغيب!.

ثالثاً: كان مكاشفاً!.

رابعاً: (فحصلت له حالة، الشَّعَر خَفَسَ الموس ليد المزين).

خامساً: عندما طلب منه تلاميذه أن يريهم الطيران في الهواء: (طار بعنقريبه بالهواء والناس تنظر كذلك ثم نزل في محله)[٢].

---

(١) ترجمة رقم (٢٠) ص ٧٩ ـ ٨٣.

(٢) الجذب.

الوقفة السادسة عشرة

مع الشيخ هجو بن عبد اللطيف بن الشيخ حمد ولد زروق[١]:

مما نسب له من طامات:

أولاً: أن الشمس ردت يوم موته، قال ابن ضيف الله: (وظهرت له كرامة عظيمة عجيبة بشهادة الشيخ خوجلي. قال: تزوج امرأة في توتي اسمها زينب بنت بلة، وتوفي العصر ما أمكن الناس أن يمرقوا نعشه لضيق النهار، والبحر ملان في القيف. قال: ثم إن الشمس انقلبت إلى محل الطلوع فحينئذ مرقوا جنازته ودفنوه في الشرق[٢] مع آبائه.

قيل للشيخ خوجلي، شفتَ بعينك أو سمعتَ؟ قال: شفتُ بعيني أنا معاي الجنيات نلعب الضَّقل الناس قاعدين قدام المسجد في ظل عشية، ثم إن الناس ناس البكاء قعدوا في ظل الضحى وراء المسجد وشفت النساء تركت البكاء وزغرتت زغاريت الفرح).

ثانياً: (عندما توفي تزوجت زوجه بعده الفقيه أحمد بابا أخو الفقيه أرباب. الناس أنكرت ذلك قال لهم: ما هو دونه).

من البدع المنكرة عدم تزوج الصوفية لنساء الشيوخ بعدهم إذا طلقن أو ماتوا عنهن. وسبب ذلك خوفهم أن يغاروا من قبل الشيوخ!!.

---

(١) ترجمة رقم (٢٦٣) ص ٣٦٨.

(٢) في بحري.

وهذا الفعل مخالف لما كان عليه الصحابة والتابعون والسلف الصالحون، إذ عندما استشهد جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه تزوج زوجه أسماء بنت عميس أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وعندما توفي عنها أبو بكر تزوجها علي رضي الله عنه، فما بال هؤلاء الصوفية للسلف مخالفون وعن الصراط ناكبون؟!.

الأمور التي تحتاج إلى وقفات في كتاب الطبقات كثيرة جداً، وما ذكرناه في هذه الوقفات يمثل لما تبقى منها إذ ليس غرضنا الإحاطة والتعليق على كل ما جاء فيه خوف الإطالة والإملال.

خـــاتـــمـــة

الحمد لله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى. . . وبعد.

أود أن أختم هذا البحث بإبراز أثر سلطنة الفونج الإسلامية في المقومات الأساسية؛ عقدية، وسلوكية، واجتماعية، وتربوية، التي صاغت المجتمع السوداني في الماضي والحاضر بوصفها أول دولة إسلامية قامت في السودان وَقُدِّر لها الاستقرار لمدة طويلة من الزمان (٩١٠هـ ـ ١٢٤٥هـ ـ ١٥٠٤م ـ ١٨٣٠م) مما مكنها من تجميع وتوحيد العناصر الإسلامية عربية وأفريقية في بوتقة واحدة وكيان سياسي موحد.

وسنشير إلى هذا الأثر في الجوانب التالية:

١ ـ الجانب العقدي:

من أبرز الجوانب التي يظهر فيها أثر سلطنة الفونج الإسلامية على الإنسان السوداني واضحاً جلياً هذا الجانب، وذلك لسيطرة الفكر الصوفي والطرق الصوفية سيطرة تامة على المجتمع في ذلك الوقت حكاماً أو محكومين، فقد سلك الجميع في الطرق التي كانت سائدة في ذلك الوقت.

على الرغم من أن الفكر الصوفي أمر حادث في الدين لم تظهر بداياته إلا في نهاية القرن الثاني أو بداية الثالث، وعلى الرغم من أن الطرق الصوفية لم تبرز بأسمائها ورسومها وطقوسها إلا في القرن

السادس الهجري[١] وأنَّ الطرق الصوفية لم تدخل السودان إلا في النصف الثاني من القرن العاشر الهجري وأن دخولها كان متزامناً مع قيام سلطنة الفونج إلا أن أثرها على المجتمع السوداني كان ولا يزال أثراً عميقاً وكبيراً، إذ أن أكثر من ٩٠٪ من السودانيين تقريباً ينتمون إلى الطرق الصوفية مع تفاوت في الالتزام، ولا أدل على ذلك من انخراط الشيخ عجيب «المانجلك» شيخ العبدلاب وبعض السلاطين في الطريقة القادرية وأخذهم الطريق على يد الشيخ تاج الدين البهاري الذي قدم السودان من بغداد عن طريق الحجاز عام ١٥٦٣هـ بأمر من الرسول ﷺ وعبد القادر الجيلاني كما زعموا!! ومن دخول بعض الفقهاء فيها بعد أَنْ استنكفوا عن سلوكها أولاً كالشيخ عبد الله العركي وحمد الترابي، لما حظي به مشايخها من مكانة فاقت مكانة الفقهاء.

أول الطرق دخولاً وانتشاراً في السودان هي:

(أ) **الطريقة القادرية** التي تنسب زوراً وبهتاناً إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله (٤٧٠ ـ ٥٦١هـ)، لأن ما عليه هذه الطريقة الآن من عقائد وبدع تخالف ما كان عليه هذا الإمام وتكذب كل ما ينسبه الصوفية إليه[٢]. دخلت القادرية السودان على يد الشيخ تاج الدين البهاري[٣] بدعوة من تاجر سوداني هو داود بن عبد الجليل[٤]، وهذا ينافي الزعم بأنه جاء إلى السودان بإذن من الرسول ﷺ ومن عبد القادر الجيلاني رحمه الله. أقام تاج الدين البهاري في السودان

---

(١) انظر طائفة الختمية للدكتور أحمد جلي ـ المقدمة.

(٢) نحو دعوى صوفية المشرق أن عبد القادر الجيلاني هو المتصرف في الأكوان!!.

(٣) البهاري بفتح الباء نسبة إلى مقاطعة ومدينة بهار في ولاية البنجاب بالهند وقيل نسبة إلى البهرة وهي فرقة من فرق الشيعة الإسماعيلية والله أعلم ـ انظر هامش رقم (٢) ص١٢٧ من كتاب الطبقات.

(٤) انظر مقدمة كتاب الطبقات.

سبع سنوات، ومن أشهر من سلك على يديه محمد الهميم (ود عبد الصادق) وبان النقا الضرير، ودفع الله العركي، ومحمد سوار الذهب في آخرين، وتعتبر الطريقة القادرية أقدم وأكثر الطرق الصوفية انتشاراً وأتباعاً في السودان.

(ب) **الطريقة السمانية** وهي فرع من الطريقة القادرية وتنسب إلى سماني المدينة الشيخ محمد بن عبد الكريم السمان (١٧١٧م ـ ١٧٥٥م) وقد تلقى هذه الطريقة بالمدينة من السمان الشيخ أحمد بن الطيب البشير (١١٥٥ ـ ١٢٣٩هـ) ونقلها ونشرها في السودان في سنار العاصمة وفي غيرها من بلاد السودان خاصة في أم مرحي شمال أم درمان حيث كان مولده ومثواه الأخير وهي أقل اتباعاً من الطريقة القادرية.

(ج) **الطريقة الشاذلية** هي الطريقة الثانية من حيث الدخول وتنسب إلى الشيخ أبي الحسن الشاذلي (٥٩٣ ـ ٦٠٦هـ) وانتشرت في شمال أفريقيا على يد الشيخ محمد سليمان الجزولي مؤلف دلائل الخيرات، ودخلت السودان قبل قيام دولة الفونج، وأول من سلك الطريقة الشاذلية الشيخ خوجلي بن عبد الرحمن المتوفى ١٧٤٣م فقد تلقاها من شيخه محمد بن الناصر الشاذلي بعد أن كان قادرياً. وقد قال صاحب الطبقات عنه: (وأما أصل طريقته فالأساس قادري والأوراد والأخلاق شاذلي) ثم أنشأ الشيخ حمد بن محمد المجذوب (١٦٩٣ ـ ١٧٧٦م) فرعاً للطريقة الشاذلية بالدامر إثر عودته من الحجاز اشتهرت بالمجذوبية.

(د) **الطريقة التجانية** نسبة للشيخ أحمد التجاني، وتنتشر بصورة واضحة في غرب السودان في كردفان ودارفور.

هذا بجانب طرق أخرى حديثة كالسنوسية، والخلوتية والختمية[١] والأنصار والبرهامية وغير ذلك.

---

(١) دخلت الختمية السودان عام ١٨١٨م على يد مؤسسها السيد محمد عثمان الميرغني.

وقد خمدت الصوفية شيئاً ما في السودان بسبب الوعي الديني، ولكن مما يؤسف له أن هناك محاولة بعث جديد الصوفية بإغراء الشباب والمثقفين بالانخراط فيها، وذلك للأسباب الآتية:

١ - التسيب والفراغ والخواء الروحي لدى الحركة الإسلامية السودانية مما جعل بعض شبابها يرتدون عنها وتتلقفهم الطرق الصوفية.

٢ - منافقة الحكومة السودانية للطرق بغرض كسب أتباعها ومنافقة المشايخ للحكومة للاستفادة من إمكاناتها، يتضح ذلك من عمل مؤتمر الذكر والذاكرين، وحضور كبار المسؤولين الحوليات والموالد ونعي المشايخ، وعمل احتفال كبير في أم دبيكرات حيث يدفن هناك الخليفة عبد الله التعايشي والخليفة على ود حلو وغيرهما رحم الله الجميع، ونحو ذلك من الوسائل المبتذلة.

٣ - إغراؤهم عن طريق السماع الصوفي المحرم الذي قلدوا فيه الأغاني المبتذلة نحو «رسول زي ده..» تقليداً «الحبيب زي ده..»، وتلحين «السراي» إلى غير ذلك وقد ساعد على ذلك الإعلام الذي إذا أحصينا ما يذاع في وسائله من سماع سواء كان صوفياً وغيره - لأن الكل محرم بل السماع الصوفي أشد تحريماً لأنهم يريدون به التقرب إلى الله وهو يباعد بينهم وبين الله - وجدناه فاق الـ ٦٠٪ من الوقت تقريباً.

المذهب الفقهي:

المذهب السائد في السودان الآن هو المذهب المالكي، عدا طائفة قليلة من السودانيين تتبع وتقلد المذهب الشافعي - سيما منطقة طوكر وسواكن وبور سودان، وطائفة قليلة أخرى تعمل بما رجح لديها بالدليل وهم مجموعة أنصار السُّنة والسلفيون.

دخل المذهب المالكي إلى السودان من صعيد مصر[١] وشمال أفريقيا[٢]. ومن أوائل من ساهم في نشره في السودان الشيخ عبد الله العركي والشيخ إبراهيم البولاد بن جابر بعد عودتهما من الدراسة في الأزهر حيث أدخلا تدريس رسالة ابن أبي زيد القيرواني ومختصر خليل في الفقه المالكي، ثم تتابع العلماء بعده وتناولت شروح عديدة للرسالة ومختصر خليل، بل وضع مختار جودة الله، وضيف الله بن عليّ، ومحمد بن عبد الله بن حمد الأغبش، وود كنان وغيرهم حواشي على خليل والرسالة وغيرهما ولهذا فإن السودانيين يتعصبون للمذهب المالكي ولا تتسع صدورهم لمن خالفهم.

أما تعاليم المذهب الشافعي فقد دخلت السودان على يد الشيخ محمد بن علي بن قرم المصري واشتهر فيه إبراهيم الفرضي، والقاضي دشين، وعبد الله العركي، وعبد الرحمن ولد حمدتو، وكان شائعاً في أول الأمر في العاصمة سنار وفي مدينة أربجي أكبر المراكز الإدارية بعد سنار وفي بربر.

أشهر العلوم والكتب التي عرفت في هذا العصر:

العلم السُّني ضعيف جداً في السودان، حيث لم يشتغل به أحد في الماضي، بل لا تجد عالماً واحداً كان مشتغلاً بتدريس الحديث أو شرح ديوان من دواوين السُّنة، حيث اكتفوا في الفقه بمتني الرسالة ومختصر

---

(١) كان المذهب السائد في مصر إلى حين حضور الإمام الشافعي إلى مصر هو المذهب المالكي، وعندما جاء الإمام الشافعي إلى مصر نزل عند أبناء عبد الحكم المالكية، ثم كون له تلاميذ نشروا مذهبه في الوجه البحري من مصر وبقى أهل الصعيد على مالكيتهم.

(٢) كان المذهب السائد في شمال أفريقيا منذ الفتح وإلى ١٧٠هـ هو مذهب الإمام الأوزاعي ولكن بعد ذلك حل المذهب المالكي محله منذ عهد الخليفة هشام بن عبد الرحمن بن معاوية.

خليل وشرحهما يكررونهما مرات عدة تزيد على العشرين في بعض المساجد. والسبب في ذلك يعود إلى أن المذهب المالكي بعد أن انتقلت زعامته من الأندلس بعد ضياعها إلى مصر اقتصر المصريون واكتفوا بمتني الرسالة ومختصر خليل وشروحهما، أما شروح كتب السُّنة مثل شروح صحيح مسلم العديدة وأمهات كتب الفقه المالكي المؤيدة بالأدلة كالتمهيد والاستذكار والكافي وثلاثتها لابن عبد البر فلم يشتغل بها أحد من المصريين ولهذا لم تعرف هذه الكتب لدى المالكية طيلة تلك المدة ولا بعدها إلا في هذا العصر.

كذلك من العلوم التي لم يعرفها السودانيون تبعاً لغيرهم من المصريين والمغاربة العقيدة السلفية وعلومها وذلك بعد أن تمكنت العقيدة الأشعرية الحادثة المخالفة لعقيدة أهل السُّنة وبعد أن أضفى عليها أصحابها هذا الاسم زوراً وبهتاناً سيما في عهد صلاح الدين الأيوبي رحمه الله بعد أن قضى على عقيدة الروافض فوجد الأشاعرة هم البديل فتولى حماية هذا المذهب. ولا أدل على ذلك من أن المسلمين في شمال أفريقيا لم يسمعوا بالعقيدة الأشعرية إلاَّ عندما جلبها لهم ابن تومرت من المشرق وحمل الناس عليها وأكرههم على ذلك بعد عام ٥١٤هـ حيث كان الناس لا يعرفون لعقيدة السلف بديلاً إذ هي عقيدة إمامهم مالك الذي يتبعونه في الأصول قبل الفروع.

فالعلوم التي انتشرت في السودان وأثرت ولا يزال لها أكبر الأثر في معتقدات الناس وسلوكهم هي:

- **علوم القرآن الكريم**، مثل: السند، والقرآن وما يتعلق بالتجويد، ورسم المصحف. ومن أشهر الذين اشتهروا بذلك من غير السودانيين التلمساني المصري، ومحمد القناوي المغربي، ومن السودانيين الشيخ سوار الذهب، وعبد الله الأغبش، وتلميذه عيسى ولد كنو. وقد عرف السودانيون الأُول ودرسوا متن الخرازي - أرجوزة في رسم القرآن - ومتن الجزرية.

- **الفقه**، خاصة الفقه المالكي والشافعي.
- **العلوم العربية**، من نحو وبلاغة وغير ذلك.
- **الفرائض**، وكان هناك تركيز خاص على الفرائض لحاجة الناس الماسة لهذا العلم عملياً ونبغ فيه إبراهيم بن عبودي الفرضي السوداني المشهور ومؤلف الحاشية المشهورة بالفرضية، ومالك بن عبد الرحمن ولد حمدتو الذي ألف ثلاث حواشي على الميراث: صغرى، ووسطى، وكبرى.
- **علم الكلام والعقيدة الأَشعرية**، ومن العلوم السيئة التي عرفت في هذا العصر ودرست وانتشرت، حيث درس شرح العقيدة السنوسية بعد متنها وأم البراهين.
- **كتب التصوف**، ومن الآثار السيئة التي ورثها السودانيون عن سلطنة الفونج وأثرت في عقائدهم وسلوكهم انتشار الكتب الصوفية العقدية، وكتب طبقات الصوفية وأورادهم نحو الطبقات الكبرى للشعراني التي تعرف «بلواقح الأنوار في طبقات الأَخيار» لعبد الوهاب الشعراني المتوفى ٩٧٣هـ ونحو كتاب «لطائف المنن والأخلاق في بيان التحدث بنعمة الله على الإطلاق» للشعراني أيضاً. وكتاب «دلائل الخيرات وشوارق الأنوار في الصلاة على النبي المختار» لأَبي عبد الله محمد ابن عبد الرحمن بن أَبي بكر الجزولي وكذلك «حزب البحر» المعروف بـ«الحرز اليماني» المنسوب للشيخ عبد القادر الجيلاني ولا تصح نسبته إليه. وكتاب «مناجاة ابن عطاء الله» السكندري المتوفى ٧٠٩هـ وكتاب «لطائف المتن في مناقب أبي العباس المرسي» وشيخه أبي الحسن الشاذلي. وكذلك كتاب الوظيفة وحزب البحر لأبي الحسن الشاذلي، والفتوحات المكية لابن عربي الطائي وهو أخطرها على الإطلاق، وقد عملت هذه الكتب على إفساد العقائد وتخريب التصورات والمناهج في السودان ولا تزال تعمل.

٢ ـ الجانب الاجتماعي:

السلوك الاجتماعي للإنسان السوداني في الماضي والحاضر صيغ في هذا العهد حيث كانت ولا تزال الصلات الاجتماعية هي الميزان الذي يوزن به المرء، قد يكون المرء ممارساً للشركيات، تاركاً للصلاة، أو شيوعياً منكراً للدين ونحو ذلك، كل هذا غير معتبر ولا يؤثر في تعامل الناس معه وتقديرهم واحترامهم له إذا كان ظاهر الحضور في المناسبات الاجتماعية ـ في الأفراح والأتراح ـ خدوماً لأهله وإخوانه. ونحن عندما نقول ذلك لا ننكر أهمية هذه الأمور وأنها من الدين بمكانة عظيمة ولكن نريد أن نبين أن هناك خلطاً في تقديم الأهم ثم المهم وفي تقديم المندوب على الفرض والواجب، ومن جعل الخوف من الناس ومن كلامهم وانتقادهم أشد من الخوف من الله عز وجل، ولبيان أن من أسخط الله برضا الناس أسخط اللَّهَ والناسَ جميعاً، ولبيان أن رضا الناس غاية لا تنال، وللتنبيه على عقيدة الولاء والبراء.

وهذا السلوك عند السودانيين من الوضوح بمكان بحيث لا يحتاج إلى تدليل ولهذا نجد بعض القادة السياسيين ينافقون أتباعهم والمجتمع السوداني بتكلف حضور كل المناسبات سيما قرب موعد الانتخابات. واعلم متزعماً لجماعة لو قُسِّمَ كِبْرُه واستعلاؤه على أهل السودان لوسعهم ولنافسوا قارون في ذلك. إلاَّ أنه ما من عقدٍ ولا صلاة جنازة، ومجلس عزاء لأفراد جماعته خاصة إلاَّ وتجده أول «المُحْضَرين» والمتصدرين لذلك لانتباهه لنقطة الضعف هذه عند السودانيين ولأنه مصاب بداء الشهرة، وله من المُذَكِّرين على ذلك ومن المنبهين الكثير.

ومما يدل على سيطرة الجانب الاجتماعي لدى السودانيين في الماضي والحاضر أن أرباب العقائد المسمى «بالخشن» لم يَقْوَ على ترك الصلاة على تاركي الصلاة والفسقة والمبتدعة، وقد نبهه تلميذه الناصح الأَمين حمد «ود أم مريوم» رحمه الله، خشية كلام الناس كما مر قول حمد: (فترك ذلك وقتاً

والناس ما هم رضيانين. قالوا له: الناس جيرانك وأقاربك تسمع كلام حمد المشاقق!! فعاد كما كان فرحلتُ منهم ودخلتُ توتي)[١].

ولهذا كان من أبرز واجبات مشايخ الصوفية والفقهاء الشفاعة للعامة لدى الحكام، وقلما ترجم «ود» ضيف الله لولي دون أَنْ يذكر (وكانت لا ترد له شفاعة) (وكان الشيخ حمد بن المجذوب يقوم بمصالح الناس وأعطاه الله القبول التام عند الخاص والعام وكان كثير الشفاعة عند الملوك والسلاطين لا سيما ملوك جَعَل)[٢].

لم يكتف مشايخ الصوفية بالشفاعة والمحاباة عن أتباعهم لدى الحكام في الدنيا، بل ادعى بعضهم أنه سيشفع لأهله عامة خاصة النساء لضعفهن، ولهذا طمأن الشيخ بدوي «ولد» أبو دليق الكاهلي جميع الكاهليات بقوله «يا كاهليات أنا جبلكن يوم القيامة»[٣].

وقال الشيخ بان النقاء يمدح محمد الهميم:

الشيخ محمد يوم لِقى العَرْضات   هو يشفع لِي يوم تُكشف العورات[٤]

مما يدل على الروح الاتكالية وعدم المبالاة عند السودانيين حتى في أخطر اللحظات، كيف لا؟ وقد أسست الصوفية على الكسل كما قال الشافعي.

هذه التأثيرات المختلفة بتناقضها وتباينها، بسلبياتها وإيجابياتها، بما غاب منها وما حضر، بمشايخ الصوفية وبالفقهاء. هي التي صاغت المجتمع السوداني منذ ذلك الحين وإلى الآن، وهي التي ولدت الآتي:

١ ـ سيطرة الطرق الصوفية والفكر الإرجائي على الإنسان السوداني سيطرة تامة.

---

(١) انظر ترجمة حمد «ود أم مريوم» رقم (٣٢) ص ١٧٤.
(٢) مقدمة الطبقات ص ١١.
(٣) ترجمة رقم (٤٨) ص ١٢٣.
(٤) الطبقات ص ٣١٧.

٢ ـ غياب العلم السُّني بخاصة، وضعف العلم الشرعي بعامة، وندرة العلماء الأكفاء.

٣ ـ التعصب للمذهب المالكي والنفور عن كل ما يخالفه مهما ظهر دليله.

٤ ـ مع تعصبهم لمذهب مالك في الفروع وهو مذهب سُّني فإنهم يخالفونه في الأصول إذ يدين جل المتخرجين من الأزهر والمعاهد والجامعة الإسلامية السودانية بالعقيدة الأشعرية المخالفة لعقيدة أهل السُّنة والجماعة.

٥ ـ سيطرة العادات والتقاليد الاجتماعية في التوجيه.

٦ ـ التعصب لما ورثوه عن الآباء والأجداد من غير تمحيص لما يوافق الشرع وما يخالفه.

٧ ـ غلبت روح اللامبالاة والاتكالية لدى الغالبية العظمى من الشعب السوداني في أمور الدين والدنيا.

٨ ـ سرعة الانخداع لكل من جاءهم باسم الدين أَو رفع شعاره وإِن كان ما يقوله مخالف لما هو معلوم من الدين ضرورة.

٩ ـ الكسل في التحصيل والبحث وعدم الاشتغال بطلب العلم الشرعي والتأليف فيه.

١٠ ـ ضياع جل الوقت والمال والطاقة في الاجتماعيات أفراحاً كانت أم أتراحاً.

١١ ـ غربة العقيدة السلفية وندرة المعتنقين لها والداعين إليها.

١٢ ـ الطيبة والتسامح والمجاملة في أمور لا تسمح بذلك والسكوت عن أشياء الساكت عنها شيطان أخرس.

١٣ ـ القابلية لقبول الخرافات والشعوذة والدجل مهما كانت درجة مخالفتها للشرع.

فرغ منه ضحى يوم الأحد
لخمس بقين من جمادى الأولى ١٤٢٠هـ

المراجع

- **إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان**، لابن قيم الجوزية.
- **جامع بيان العلم وفضله**، لابن عبد البر.
- **طائفة الختمية أصولها التاريخية وأهم تعاليمها**، للدكتور محمد أحمد جلي، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.
- **الطريق إلى ولاية الله**، للأمين الحاج محمد.
- **العلم فضله وطلبه**، للأمين الحاج محمد.
- **كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان**، تأليف محمد النور بن ضيف الله، حققه وعلق عليه وقدم له الدكتور يوسف فضل حسن ـ الطبعة الرابعة ١٩٩٢م ـ دار التأليف والنشر والترجمة ـ جامعة الخرطوم.
- **مجموع فتاوي شيخ الإسلام ابن تيمية**.
- **مقدمة في تاريخ الممالك الإسلامية في السودان الشرقي ١٤٥٠م ـ ١٨٢١م**، للدكتور يوسف فضل حسن.

محتويات الكتاب

المحتويات

الفصل الثاني ـ وقفات خاصة

(أ) الوقفات المشرفة المشرقة:

(ب) الوقفات مع ما فيه تخليط وتحريف:

كتب للمؤلف

- الإيمان.
- أحكام الجنائز.
- دليل الذاكرين.
- النصيحة ومكانتها في الإسلام.
- أحكام الزواج.
- العلم وفضله.
- فقه الحج والعمرة والزيارة.
- مواقف من سيرة الرسول ﷺ.
- الطريق إلى ولاية الله.
- اليسير في الحدود والجنايات والتعزير.
- الشورى المفترى عليها.
- الخضر عليه السلام.
- حكم التصوير في الإسلام.
- سنن الفطرة.
- حكم تولي المرأة الإمامة الكبرى والقضاء.
- حُجيِّة أحاديث الآحاد في العقائد والأحكام.
- الجن والشياطين والسحر والعين والرقي.
- شرح مقدمة ابن أبي زيد القيرواني في العقيدة.
- الاختلاف رحمة أم نقمة؟
- سجود الشكر.
- أشراط الساعة.
- ظاهرة التكفير.
- الوصية.
- اللقطة وأحكامها.
- الهبة وأحكامها.
- التبيان لما يؤكل وما لا يؤكل.
- حكم الاحتكار والتسعير في الإسلام.
- هذا الشفيع.
- حكم البيع بالتقسيط.
- حكم نقل الميت من مكان لآخر.
- نماذج من فراسة الصالحين.
- إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة.
- الحركة الإسلامية في السودان.
- الرشوة وخطرها على الفرد والمجتمع.
- رؤيا الرسول ﷺ يقظة ومناماً.
- حكم التوسل بالرسول ﷺ.
- بطلان تقسيم العلم إلى علم شريعة وحقيقة.
- حكم الإسلام في الموسيقى والغناء والسماع الصوفي.
- إسلام أحد الزوجين قبل الآخر.
- ظاهرة التسول: خطرها ـ أسبابها ـ علاجها.
- العمل والانتاج واجب ديني.
- كيفية اختبار الحاكم في الإسلام.
- الإمام العادل صفته وثوابه.
- الأموال التي تجب فيها الزكاة.
- من تصح الصلاة خلفه.
- الشهادة: خطرها ـ أنواعها حكمها.
- الكفارات: أنواعها ـ أسبابها ـ حكمها.

- ثبوت الأهلة بين الرؤية والحساب.
- رفع اليدين في الدعاء.
- حكم ستر الجدر والحيطان.
- بيع العربون.
- بيوع الأمانة.
- بيع المزايدة.
- حكم بيع الحبوب والثمار قبل بدو صلاحها.
- حكم ما تفسده الماشية ليلاً أو نهاراً.
- من عقائد الصوفية.
- البدعة وأثرها على الدين والمجتمع.
- تبرئة الذمة بدفع الزكاة للولاة والأئمة.
- حكم الاستعانة بالكفار.
- الصيام في السفر رخصة أم عزيمة؟
- موت الفجاءة ـ ومن مات فجأة من العلماء.
- ما يدركه المسبوق: هل هو أول صلاته أم آخرها؟ وكيفية قضاء صلاة المسبوق.
- إن من عباد الله من استسقى بهم الناس فسقوا.
- طريق النصيحة.
- التقليد: ذمه ـ خطره ـ أنواعه.
- هل على المرأة غزو وجهاد؟
- اليسير في الفرائض.
- الرؤى: أقسامها ـ آدابها ـ تعبيرها.
- ما يمنعه الحيض والنفاس.
- اتحاف العروسين بحق الزوجين.
- محبة الرسول ﷺ بين الجفاة والغلاة.
- التجديد السني والبدعي.
- الصحابة الفحول كلهم عدول.
- حكم الاحتفال بالمولد.
- التبيان لحكم المصافحة والمعانقة والانحناء والقيام.
- الخوف والبكاء من خشية الله.
- ما خالف فيه الأشاعرة أهل السنة.
- من عقائد الشيعة الإمامية.
- التقارب الديني.
- مناقشة هادئة لبعض آراء وأفكار د. الترابي.
- الوقف وأثره في التنمية في الماضي والحاضر.
- الصارم البتَّار في الرد على الترابي وسوأة من سوآته الكبار.
- العرف ليس مصدراً من مصادر التشريع الإسلامي ووقفات مع مسودة الدستور السوداني سنة ١٤١٩هـ.
- من لم يتجاوز الأربعين من عمره من العلماء.
- الرَّد القويم لما جاء به الترابي والمجادلون عنه من الافتراء والكذب المهين.
- الحَسَنَة بين سيئتين.
- طوبى لمن مات وماتت بدعته معه وويل لمن مات وبقيت بدعته بعده.
- ليعلم الناسُ أن الترابي قرآني منكر للسُّنَّة وأنه مقلد.
- من فقه الحج: تجنب المخاطر ودرك المفاسد.
- حُكْم السَّفر إلى بلاد الكفار والسكني بين ظهرانيهم.